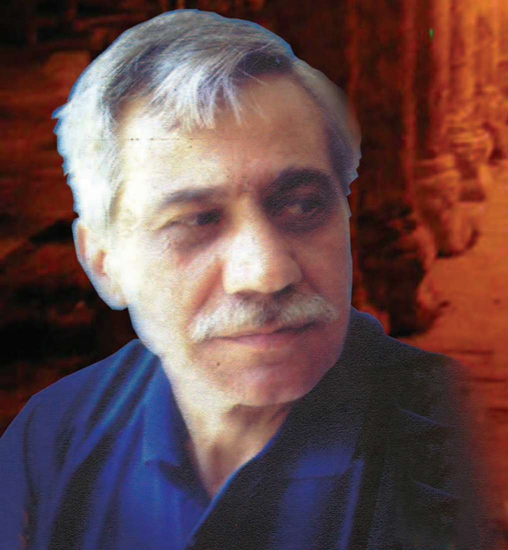


إلياس فركوح

اسرار ساعة الرمل



اسـ ـرار
سـ ـاعـ ـة
الـ ـرمـل

إليـــاس
فـــرح

المحتــــــوى

أسرار ساعة الرمل

أسرار ساعة الرمل

* نشرت طبعتها الأولي عام ١٩٩١، عن المؤسسـة العربية للدراسات والنشر – بيروت.

* كتبت قصص المجموعة بين عامي ١٩٨٥ و١٩٩٠ في عمان، ما عدا قصتا "الدم الأول" و"ساندريللا" فقد كتبتـا عام ١٩٨٠.

القسم الأول

أسرار ساعة الرمل

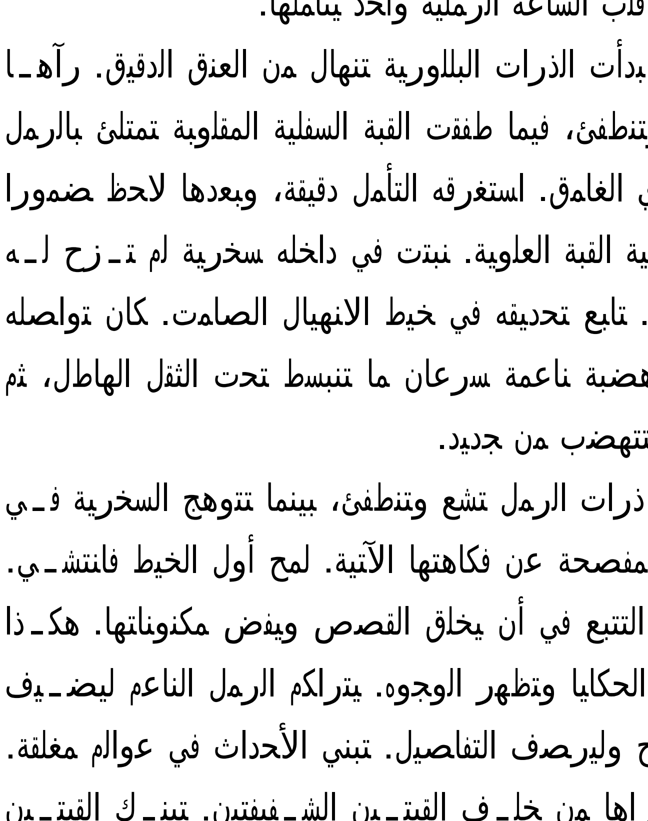
ما لم تقله الأشجار

انتهاك

حلم

دم

أسرار ساعة الرمل



الكاتب يبدأ

قلب الساعة الرملية وأخذ يتأملها.

بدأت الذرات البللورية تنهال من العنق الدقيق. رآها تشع وتنطفئ، فيما طفقت القبة السفلية المقلوبة تمتلئ بالرمل الوردي الغامق. استغرقه التأمل دقيقة، وبعدها لاحظ ضمورا في كمية القبة العلوية. نبتت في داخله سخرية لم تزح له سترها. تابع تحديقه في خيط الانهيال الصامت. كان تواصله يكوم هضبة ناعمة سرعان ما تنبسط تحت الثقل الهاطل، ثم تعود لتتهضب من جديد.

ذرات الرمل تشع وتنطفئ، بينما تتوهج السخرية في داخله مفصحة عن فكاهتها الآتية. لمح أول الخيط فانتشى. أغراه التتبع في أن يخلق القصص ويفض مكنوناتها. هكذا تتوالد الحكايا وتظهر الوجوه. يتراكم الرمل الناعم ليضيف الملامح وليرصف التفاصيل. تبني الأحداث في عوالم مغلقة. لكنه يراها من خلف القبتين الشفيفتين. تينك القبتين

الزجاجيتين. إحداهما تـدلق التفاصـيل، والثانيـة تلملمهـا وتركبها، فتكون قصة بأشخاص... وملامح... وحركـات... وأسرار.

"أجل. بأسرار. ولم لا؟"، قال. ثم خطت على جبينـه علامة التفكير، وطفحت من وجهه ابتسامة ساخرة.

قلب الساعة الرملية ثانية، وأخذ يتأملها ليـرى كيـف تصير الحكاية داخل الحجرات الزجاجية. آسف، داخل القباب المملوءة بالرمل.

وبدأ.

١ - القبو

كان كل شيء على فوضاه في المكان. لكنهما لم يحدثا جلبة. لم يصطدما بأي جسم وهما يجوسـان فـي الظلمـة المكسورة بالخط الأرضي للضوء العريض. داسا عليه بعدما أغلقا الباب باحتراس. ليس من صوت مباغت. الحرص سيد الحركة وهما خالقاه الماهران. توقفا للحظة حتى يألفا الظلمة، وبعدها توجها صوب الزاوية الحميمة. خطا هو أولاً، وتبعته هي دون أن تدري سببا لخوفها.

هذه ليست مرتهما الأولي.

"ما بك؟"، همس ماضيا في تقدمه الحذر.

قالت مبتلعة ريقها الجاف:

"لا شيء. خائفة. "

قال بلا وعي، وقد شعر بترددها حين لم يتبـق مـن ضوء الدرج غير خطه العريض، الأبيض الفاقع كـالمرض، المنسرب من عتبة الباب.

"لا تخافي. ".

كان قد وصل إلى الزاوية واستدار إليها. رآها، خلال العتمة الساكنة، مجرد عينين تبرقان ولهاث مكتوم.

"قلت لك لا تخافي. تعالي. "

لكنها بقيت جامدة في مكانها.

زفر وتصاعد توتره لما أدرك ذوبـان الوقـت. قـال مشجعا إياها بصوت هدجة الانفعال.

"ستسير الأمور مثل كل مرة. ألم ننج في كل مرة؟"

"نعم. "

"إذن، تعالي. "

"لكنني خائفة!"

مد يده وجذبها إليه. لم تقاوم، غير أنها كانت ترتجف. فكر بأن ذلك ليس غير تردد منها، وأن ما سيفعله الآن كفيل بتبديد مخاوفها الغريبة. كانا أقل حظًا في المرات الســابقة، ومع ذلك نجحا. لم يلحظ أحد أمرهما أو يكتشفه. قرب فمــه من عنقها وألصقه على اللحم. كان باردا وينبض. شدها إلى جسده، وانتقل بفمه إلى صدرها. اصــطدم جبينــه بــأزرار الثوب الأسود المغلق. تذكر أن المناســبة فرضــت عليهــا الحشمة في اختيار ما ترتديه الليلة. إذن؛ فإن ما يحدث الآن في الأعلي هو السبب. فالأمر ثقيل يقــبض، وروح النســاء هشة لا تحتمل. عليه أن يصبر ويحاول حتى يــزيح عنهــا انقباضها؛ فالخوف مفهوم. ثم عمل على التخفف مــن قلقــه مؤكدا أن وجودها معه خير دليل على رضاها الأولي.

شرعت أصابعه تفك الأزرار واحدا واحدا. وعنــدما وصل إلى الزر الأخير، عند البطن، لاهثًا إذ شــبت نــاره، أمسكت بيده وهمست برجاء:

"تمهل. دعنا نجلس أولاً. "

انفصل عنها مكرها.

"أريد أن أستريح. لقد تعبت. "

"حسنًا"، قال، وجثا على ركبتيه ليهيئ الفراش القـديم في الزاوية. فاحت من القماش المترطب رائحة يعرفها جيدا. رائحتهما الأخيرة. رائحتهما في الأسبوع الماضي. تعجـب كيف أن للنساء رائحة خاصة حين يكن مـع الرجـال فـي لحظات اللذة! وكيف يطلقن، عند الانتشاء الكبير، صرخاتهن المحبوسة، وينشبن أظافرهن كالقطط في الجلد!..لقد أحـس بمتعة بالغة لألم الخدش تماثل، تماما، تلك التي أحس بها لما دارت به الدنيا وخف وزنه. حدث هذا قبل أن يفيـق علـى نفسه ليسمع سؤالها المتقطع: "لماذا تغلق فمي بكفك؟... لقـد خنقتني!".

تذكر أنه، في المرة الأخيرة، كان قـد كـتم صـرخة نشوتها العالية بوضع كفه على فمها.

وتذكر، أيضا، أنها عملت أسنانها في لحم كفـه مثـل ذئب. تحمل الوجع على أن يترك لصرختها فرصـة تنبيـه السكان على "الفضيحة"!

"ها؟ لماذا أغلقت فمي بيدك؟"، سألته في ذلك اليوم.

"كان صوتك فضيحة. "

"أنت السبب. "

"ماذا تقصدين؟"

"لا تكن ماكرا... "، وضحكت.

هز رأسه موافقًا، لكنه لم يلتفت صوبها. كـان يطبـق خصر بنطاله ويسوي أزرار قميصه المفتوح. ثم سمعها تقول بعد أن سكنت وعاد تنفسها إلى انتظامه:

"ستكون فضيحة حقًا إذا لم نتصرف بسرعة!"

عندها انتفض، واستدار محدقًا بها في الظلمـة حيـث أراحت ظهرها على جدار الزاوية. رأى نظرتها سؤالاً يطلب منه الإجابة. سؤالاً طيبا ينتظر جوابا ليريح صـاحبته. أدرك القصد وقرر أن يطرد عنه هذا الهم. "هي المـرة الأخيـرة: حدث نفسه "إذا لم أضع حدا لإلحاحها فلسوف تلبسني مثـل قميص نتن!".

لكنه عدل عن قراره بعد ذلك: "لا ضـير مـن مـرة أخرى. " كانت شهوته تجرفه إليها على نحو مصيري.

فاتحها بالأمر قبل أيام. قالت:

"أنت حبيبي. لكنك ستدعهم يذبحونني إذا لم تتصـرف بسرعة."

حاول المماطلة: "لماذا أنت مستعجلة؟ كل شيء في أوانه. "

هتفت في وجهه بعصبية:

"هذا هو الأوان. ما بك؟..ألم أقل لك بأن الدم لم يواتني منذ عشرة أيام!".

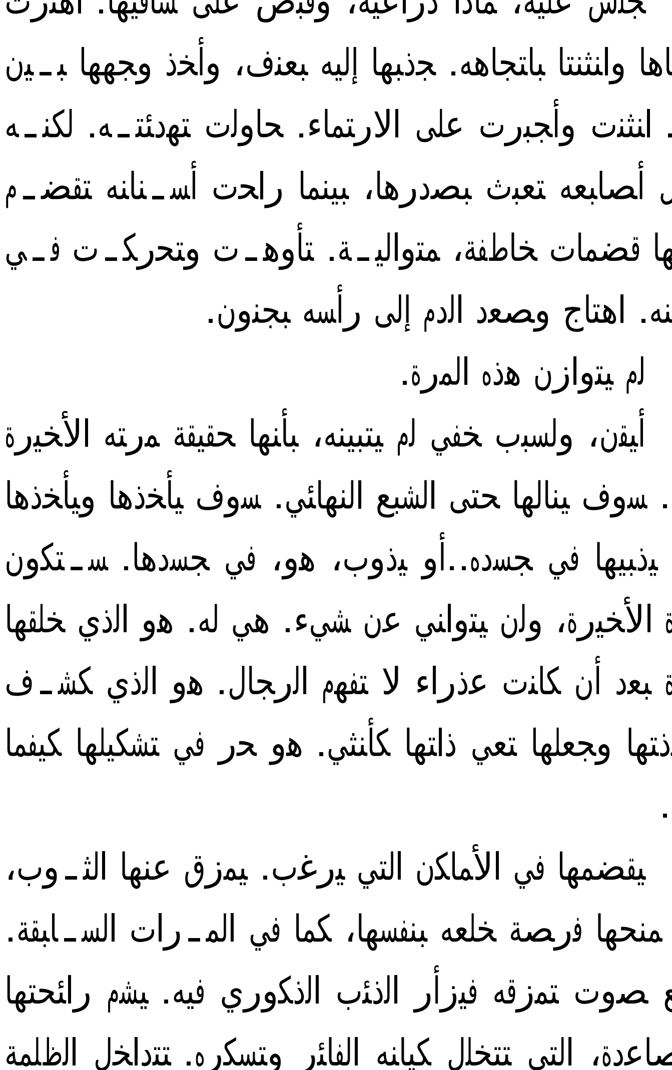
تماص: "أعراض تصيب الفتيات أحيانًا. لا تخافي. سيواتيك."

حملقت في وجهه المشيح عنها، وقالت قبل أن تفلت لجام دموعها:

"لست فتاة. أنت جعلتني امرأة. هل نسيت!؟. "

لا، لم ينس ذلك. لم ينس أنه وعدها بإتمام كل شيء قبل نهاية الشهر. وأنه ينتظر أن تشفي أمه من مرضها المفاجئ. وأنه سيكون حبيبها إلى الأبد. وأنها ستكون حبيبته حتى الموت. مسح دموعها، وقرص خدها، ثم خصرها وفخذها؛ فتأوهت، وقالت كلاما أوحي بموافقتها على مرة أخرى.

صار الفراش جاهزا الآن في الزاوية.



جلس عليه، مادا ذراعيه، وقبض على ساقيها. اهتزت ركبتاها وانثنتا باتجاهه. جذبها إليه بعنف، وأخذ وجهها بين كفيه. انثنت وأجبرت على الارتماء. حاولت تهدئته. لكنه أرسل أصابعه تعبث بصدرها، بينما راحت أسنانه تقضم شفتيها قضمات خاطفة، متوالية. تأوهت وتحركت في حضنه. اهتاج وصعد الدم إلى رأسه بجنون.

لم يتوازن هذه المرة.

أيقن، ولسبب خفي لم يتبينه، بأنها حقيقة مرته الأخيرة معها. سوف ينالها حتى الشبع النهائي. سوف يأخذها ويأخذها حتى يذيبها في جسده..أو يذوب، هو، في جسدها. ستكون المرة الأخيرة، ولن يتوانى عن شيء. هي له. هو الذي خلقها امرأة بعد أن كانت عذراء لا تفهم الرجال. هو الذي كشف لها لذتها وجعلها تعي ذاتها كأنثى. هو حر في تشكيلها كيفما يشاء.

يقضمها في الأماكن التي يرغب. يمزق عنها الثوب، دون منحها فرصة خلعه بنفسها، كما في المرات السابقة. يسمع صوت تمزقه فيزأر الذئب الذكوري فيه. يشم رائحتها المتصاعدة، التي تتخلل كيانه الفائر وتسكره. تتداخل الظلمة

ببريق عينيها المتقدتين، بهياكل الأجسام المتكومة والمنتثـرة على أرض القبو الخشنة، بخط الضوء الأبـيض العـريض الزاحف أسفل الباب، بهسيس الفئران المتسللة بعيدا عنهمـا، بصوتها المتوجع المازع لهمهمته تستدرجه لأن يهدأ، بوقـع الخطوات الصاعدة درجات الطوابق العليا؛

تتداخل الظلمة المكسورة بزحـف الخـط الضـوئي العريض،

بانقلاب المرئيات وتداخلها،

بطعم الدم المنتقل من أسنانه، إلى لسانه، إلى حلقـه، فينشط الافتراس الهاجم على نعومة اللحم المسـتباح الـذي طفقت الأسنان تترك أثلامها في طراوته المجهـدة قضـمات متاوية على نفسها تستحث الدم لأن يخرج من تحتها.

الوجع لا يحتمله بشري يلتهم وهو حي صـاح يشـهد على الهياج الذئبي المستميت، فيطلع الصوت مستغيثًا: "أنـت حبيبي!..لا تفعل!".

يشخر الذئب ولا يتواني.

"أنا حبيبتك!... أنا... لا، لا تفعل!... "

لكنه يواصل فعله، ويهدر وقد توحش وخلع عن لغتـه محرمات العلاقة؛ فجأر بالصوت الصاعد من نتانة روحه:

"سأنالك كُلك!... سأنالك، يا ابنة الكلب!"

تنتثر الأعضاء في الزاوية مثقلـة بالجسـم الوحشـي الرابض فوقها، وتسعي الأصابع في الهـواء تتمسـك بـأي شيء: الضحية تقوم..أو تحاول. لكن الهـواء حيـز غيـر مشغول إلا بالهواء. الأصابع تسعي في لحم الظهـر الثقيـل المنكفئ عليها. تنشب فيه صرختها الكلية. لكن الظهر ما عاد يحس إلا بدفق النار المتميعة فيه.

تستمر الأصابع المقاومة فـي سـعيها علـى الأرض الباردة، الخشنة، وتصطدم بأشياء وأشـياء. أشـياء رخـوة وأخرى غير ذلك، وتمسك بها.

لا تعرف الأصابع العمياء بماذا أمسكت، وكيـف. لا تعرف الأصابع أين ذهبت بنفسها، وكيف ضربت بالشـيء. لا. إن الأصابع لا تعرف عن أصابعها، وما فعلت، عنـدما وقع الفعل.

أفاقت المرأة، ووجدت كفها اليسرى تغلق فما مـدمي، تكتم بها صرخته الأخيرة. كانت تبحلق في الجثة المطروحة إلى جوارها، مشدوهة، وتردد بلا وعي:

"كان صوتك فضيحة!. كان صوتك فضيحة!... "

مر وقت على ذلك قبل أن تهدأ وتتأكد، للمرة العاشرة، دون الرعب الذي انقضى، أن يدها اليمنـى غائصـة فـي الرجل. أجل. كانت يدها غائصة تغرز في الرجل شيئًا صلبا، مجهولاً، دفن سره في داخله. عندها، تذكرت كـل شـيء. وآلمها كل شيء. لكنها توقفت عند ما هو أكثر رسوخًا فـي ذاكرتها.

تذكرت، وقالت، ساهمة بالسقف فوقها، حيث يسـجي جسد في غرفته الموصدة:

"يا ابن الكلبة!... ".

٢- الغرفة الموصدة

إلي: ز. ع.

مرت بين كتلة الجالسات في الممرات بجسمها المنوم. دلفت إلى المطبخ وغابت داخله. ثمة إحساس بخفـة غريبـة تجتاحها. أو ربما العكس؛ إذ أن أثقالاً لا مرئية تشدها إلـى رهبة سوداء. كان همس النسوة يصلها كأنه هـدير خافـت. تسمعه مثل الهدير الخافت..الخافت. الهدير خافت ولا ينقطع. يدوم بلا وهن ويحاصر رأسها بطرقـات تتـرى. طرقـات ناعمة، سلسة، خافتة، غير أنها طرقات عنيدة بأصداء عميقة. دؤوبة وتتسلق متشبثة بقدميها من الأسفل. ترتقيهما وتصـعد مغطية فخذيها المرتعشين، تحت الثوب الأسود، ملتفة حـول استدارتهما، وتنمل في مسام البطن. يقشعر بـدنها. تمسـها رجفة مباغتة خاطفة، وتطرف عيناها.

تري كل شيء.

كانت تري الحركات وتسمع الصوت.

هناك، في الداخل، ثمة الحركة الجسـورة. الحركـة الوقحة، والصوت الذي يفح. هزت رأسها كأنمـا تريـد أن

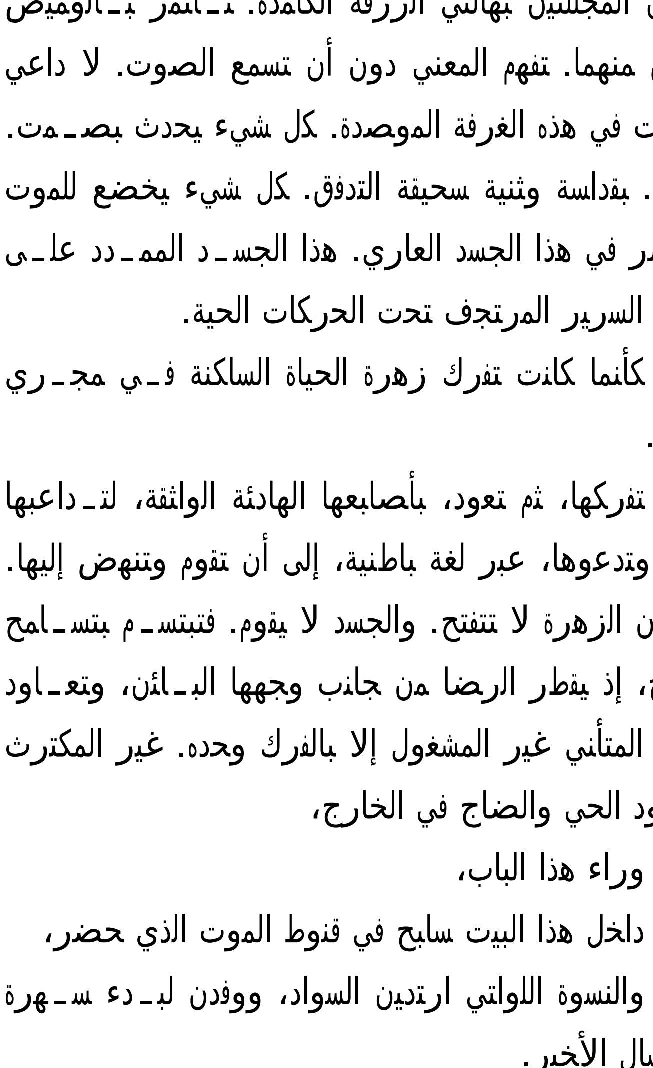
تفيق. هزته ثانية. تأكدت أن كل ما حولها حقيقي. لا، ليست في حلم. لم تكن تحلم. ها هي كتلة النسوة السـوداء تتـبعج وتلتئم. تراها من مكانها، في المطبخ، وهي تمور مصـدرة طرقاتها العنيدة: أنهن يتحدثن بألسنتهن التي تلوك الحكايات. ويغمزن بعيونهم المفتوحة على آخر الإشاعات والفضـائح. لكنها هي التي رأت. هي وحدها، وليست أي واحدة مـنهن، من رأي الحركة المقتحمة في مجونها الحثيـث، الصـامت. أجل، إنها هي ، دون سواها، التي سمعت الفحيح. هي وحدها من سمع الصوت الجحيمي، الصادر عن حلق بشري، وهـو يملأ الغرفة الموصدة.

الغرفة الموصدة.

هناك.

هنا.

خطوات ويكون الباب المغلق. خطوات مـن سـاقيها الثقيلتين ويكون الباب الخشبي الذي يحجب الرؤيـة ويمنـع الصوت. إنه الباب الذي أشارت إليه وأمرتها، بذقنها المدببة وقد حركتها باتجاهه: "أغلقيه"! فأغلقته. لم تشعر كيف تسللت إليها تلك السطوة وتغلغلت فيها. كيف باتت أسـيرة سـلطة



العينين المجللتين بهالتي الزرقة الكامدة. تأتمر بالوميض البارق منهما. تفهم المعني دون أن تسمع الصوت. لا داعي للصوت في هذه الغرفة الموصدة. كل شيء يحدث بصمت. بجلال. بقداسة وثنية سحيقة التدفق. كل شيء يخضع للموت الحاضر في هذا الجسد العاري. هذا الجسد الممدد على بياض السرير المرتجف تحت الحركات الحية.

كأنما كانت تفرك زهرة الحياة الساكنة في مجري الرقبة.

تفركها، ثم تعود، بأصابعها الهادئة الواثقة، لتداعبها برفق وتدعوها، عبر لغة باطنية، إلى أن تقوم وتنهض إليها. غير أن الزهرة لا تتفتح. والجسد لا يقوم. فتبتسم بتسامح واضح، إذ يقطر الرضا من جانب وجهها البائن، وتعاود الفرك المتأني غير المشغول إلا بالفرك وحده. غير المكترث بالوجود الحي والضاج في الخارج،

وراء هذا الباب،

داخل هذا البيت سابح في قنوط الموت الذي حضر،

والنسوة اللواتي ارتدين السواد، ووفدن لبدء سهرة الاغتسال الأخير.

سمعتها تقول بصوت لا يريد خدش القداسة:

"آتيني بماء جديد. "

تجرأت، وتقدمت نحو السرير، بهيكله المرتجف تحت الجسد العاري، الذي ارتج لحمه المفضوح لحركـة الفـرك والدعاء. وقفت على بعد خطوتين ولمحـت، مـن مكانهـا القريب، اهتزازها الخفي وهي تنحني على الجسد الأبيض. لم تر منه غير جانب من الشعر الأسـود المفـرود، والكتـف المكشوفة التي حزها شـريط حمالـة النهـدين، والسـاقين المستريحتين في انبعاجة الفراش. بـرزت الأظـافر، فـي المسافة هناك، وقد كشط دهانها الوردي القديم.

كان الصوت حازما، لكنه، رغم هـذا، كـان هادئـا خفيضا.

"اقتربي. "

فاقتربت..أو ظنت أنها اقتربت، إذ فوجئت بـالأخرى تجذبها جهة السرير، ممسكة بمعصمها. آلمتها القبضة القوية، لكنها ما وفقت في انتشال أنتها من الخوف الغريب. كانـت تنظر في عينيها بحدقتين لون الاحمرار الزاحف بياضـهما. رأت فيهما عزما لا يلينه الإذعان الذي تبديه. أبقـت علـى

معصمها في قبضتها القوية، وسحبت يـدها نحـو الجسـد المستكين. ابتلعت الجفاف الشائك فـي حلقهـا وأغمضـت عينيها: لا تريد أن تري: تخشي التحديق في الموت الأبيض العاري.

وانتفضت!..

ثمة ليونة لدنة وقد اصطدمت بأصابعها المجبرة علـى التلمس. تحلقت بكل الجزع الفائر في الروح، وعاينت انسفاح الثدي البارد الذي استجاب لوقع توترها. لفحها تنفس الأخرى وهي تدنو من وجهها. سمعتها تهمس بفحيح متآمر:

"هل ترين؟..هل ترين؟"

ولما لم تحر جوابا، ولم تصدق إيحاء طلب التواطـؤ؛ اقتربت تلك القوية من وجهها أكثر، ضاغطة على معصـمها بقوة رجل:

"هل لديك جماله هنا؟"

"ماذا!": حشرجت كالمختنقة.

قمدت يدها الأخري، ونشبت أصابعها القوية في أحـد التكورين الفزعين، الغائبين تحت سواد القميص.

"هذا. "

هوي قلبها في الحضيض، غير أن الأخرى هصـرت ما تلقفته في كفها، فجأة، ثم أمرتها:

"آتيني بماء جديد. "

وعادت إلى مناجاة زهرة الحياة. تسـتدعيها. تبحـث عنها في أرجاء الجسد الأبيض، المغطي بماء فتر، وصابون يسح ويغزو هضبة البطن في مكمن دائرته الغائرة.

أطاعت، وتركتهـا تسـتغرق فـي عمليـة البحـث والاستدعاء بكامل حواسها. لم تأبه القوية بالرعب الذي طفر على وجهها: كانت تجوس في ثنايا اللحم المعري بأصـابعها الباحثة. لم تلتفت للدمعة التي جمدها الخوف في عينيها اللتين تضببتا بالقادم من الهول!. انفلق الزمن كاشفًا عن بـرار لا تنتهي من الفحيح والأصابع الهاصرة. عن لحظـات دخـل الجنون فيها تلك الغرفة، وبات هـو السـيد المطـاع. عـن محرمات طردها الجحيم خارجـه، فـدخلت هنـاك تجـدد حيويتها، وتفتش عن زهرة سوداء قد تتبرعم في جسد ميت. انفلق الزمن، وماد الجسد الخائف، الحي، بزلزلة لذة فـاجرة هبت تنكش شعرها المتلواب الخشن، وتفرشه كالطحالب في الدم المستفيق على هصرة الأصابع والقبضة

القوية. تضببت العينان وتخدر الجسد. ثمـة البخـار المتعالي من الدماء الفوارة إلى الرأس الدائخ. ثمـة البخـار المتصاعد من الماء المبقبق إلى وجهها السابح في غيمة التلذذ الآتي!..فألم الهصرة في عضلة الثدي ما يزال. والارتعاشـة المتنملة في أسفل البطن ولدت هناك، ولن يتوقـف عواؤهـا حتى ترتوي.

اتكأ ظهرها على جدار المطبخ، وأرسـلت حواسـها لتلتقط الأشياء.

ها الماء المطلوب وصل درجة الغليان.

ها دمها الفوار يتحرش بجسدها ويستحثه للعودة إلـى الغرفة الموصدة. يستنهضه ليقدم على الاسـتجابة، وتحـدي الأصابع الجسورة والقبضة القوية. يستدرجة لامتحان الشهوة الجديدة، الغريبة؛ عل المناجاة التي رأتها في لغة يدي المرأة القوية أقدر على الإشباع من حمحمة الرجل المهزومة.

المرأة القوية: هل رأت الصهيل المكبوت المعلق على زاويتي الفم المزموم؟..هل قرأت في وجهها جفـاف الجسـد الذي لم يروه ماء رجل منذ سنين؟... هل جست جوع الثدي إلى قوة تستنفزه، وتعجنه، وتغلبه، لتروضه وتـريح تشـنج

عضلته؟..هل أدركت سر الحرمان المشترك بين جسد أمهـا المسجي، وجسدها هي ، الناهض المتأهب لأن يتلقـي، هـو بلحمه هو، دعاء الأصابع المفتشة عن زهرة الحياة السوداء؟

أية حياة؟!

سوداء.

تشققت أرض أمها على مدي عشر سنين وأكثـر. لا رجل. مات وخلّف أربع صبارات: واحدة فوق قبره. وثلاث أخري: أخوها الذاهب في غية والغائب، الآن، عن المكـان. رأته يتسال ويتبع كالكلاب الفتاة القاطنة في الطابع الأعلـي. لمحته يشير لها بأن تسبه إلى أسفل. تلك الفتـاة المسـكينة. سيتلاعب بها ويركلها. مدلل. تود لو أنها حـذرتها، لكنهـا تعرف أن الأمر في الدم الصارخ في برية الجسد... لا باليد.

وأمها: عشر سنين من الزواج فقط. كانت في التاسعة عشرة عندما غنوا لها، وألبسوها ثوبا أبيض. حلمت بفـرح دائم وذرية كثيرة. غير أن الحلم ليس الحقيقـة. والعـريس، الزوج، الأب، ليس هو الحبيب، الرجل، المسئول. وضع فيها بذرتين فقط في السنتين الأولين، ونثر البقيـة فـي الحقـول الأخرى. عشر سنين كانت حياته معها، ثم بدأ التشقق يتسع.

صارت في التاسعة والعشرين. في عيون الرجال المتشـهية عنقودا آيلاً لمن يقطفه. وفي أحلامهم الكاسحة جسدا يتململ علـ ـ ـ ـى نـ ـ ـ ـار تسـ ـ ـ ـ ـتعر. لكنهـ ـ ـ ـا العيون..والأصابع..والوجوه..والأفواه. كلها تقول بالصـوت الفصيح، واللغة الخرساء، أن الرصاص الذي أطلـق ليلـة الغناء، قبل عشر سنين. ثلاث عشرة سنة..سبع عشرة سنة، سيطلق ثانية وينهي عمرها. فهمت الدرس وأذعنت. تشققت أكثر. كبرت. أنت. ثم زوجتها قبل أن تميد وتنخسف.

"يا إلهي كم هي نضرة كتفاحة!": سمعت أحدهم يقول، ليلة زفافها، وهو يلتهمها بنظراته.

"إنها أمي": قالت موضحة. فهز الرجل رأسه، ولم ينقل عينيه عن الأم.

"انظري إلى هذا البطن! إنه لفتاة في العشرين!": فحت المرأة المنحنية على أمها المسجاة على السرير.

كانت تدعك المنطقة المظللة تحت ثقل الثديين. تدعكها بالليفة اللينة أولاً، ثم تأخذ بتمرير يدها وباطن كفها المفرودة على جانبي الخصرين. تفـرك أولاً، ثـم تتحسـس الرقبـة بأطراف أصابعها، وتهبط، دون استعجال، إلى الصدر، ثـم

تجمع كتلتيه إلى بعضهما بحركة من يرتشف المـاء بكفيـه، وتنحني عليهما، تكاد تمسهما بوجههـا، تتوقـف للحظـات وتصدر همهمة بهيمية تشبه مواء عميقًا، وتنزلق بـذراعيها العاريين، الضاغطين، مرفوعي الكمين، نحو غـور الـبطن عند منتهاه، وتمكث هناك. تمكث كـأن تعبـا داهمهـا، أو غيبوبة، ثم تفلت أمرها النزق الفحيحـي: "غيـرى المـاء!" وترفع رأسها صوبها، مصوبة إليهـا جمـرتين جحيميتـين تلسعانها، تلسعانها هي ، تلسعانها..

وهي : الزوجة الطريحة وسط فراش شـهد هزيمـة رجلها للمرة الثلاثين..الأربعين..الحمحمة الجدباء. الرعد بلا مطر. التصاعد المتصاعد دون الوصول. الاحتـراق الآكـل لنفسه. الحكاك المغتذي على جلده. الدم المتقلب على ذاته ولا انسفاح. الماء الصاقع لا يطفئ جـذوة الجسـد المتجمـرة. والأعوام تمر. تتنمر الأنثي في داخلها وتتوحش. لا يروضها العناق اليابس، ولا يهذبها الكلام الجميل. لـم تعـد نظرتـه الكسيرة توهن موجتها المصممة على أن تتكسر فوق صخور الخارج. أي صخرة. ليس هذا بمهم. فالظهر المنكفئ علـى حافة الفراش، المنكفئ على الاعتراف بهزيمته، هذا الظهـر

يقر بالبديل. أجل. يقر خطوتها الآتية في أي لحظة، ويسـلم بها.

اللحظة الآتية.

الخطوة الآتية.

..وينمل البطن في أسفله أكثر. تزوغ العينـان بفعـل الحمي التي شبت بالأعضاء الآخـذة بالارتعـاش. الآخـذة بالتهيؤ. الآخذة بالتقدم البطئ، الأكيد، المصمم، المتخطي كتلة النسوة الجالسات في الممر. تشق طريقهـا بـين الهمهمـة بجسمها المنوم، وبين يديها تحمل وعاء الماء الساخن. يلسـع جلدها لكنها لا تبالي. لا تحس إلا باللسعة الأخرى. اللسـعة الداخلية. اللسعة التي جن جنونها، وأطلقت أظافرها الحمراء تهرش البطن المتنمل الذي ضاق بكل ما يخنقه. اللسعة التي ولدتها هصرة الأصابع وانشبابها في الثدي المستعيد لعنفوانه. الثدي العفي، المتأهب، المستفز، المتوفز، النـافر، المقـتحم للباب المغلق.

"أغلقي الباب!"

أغلقته.

أغلقت الباب، هذه المرة، لأنها أرادت إغلاقه عليهما. لأنها عرفت بأن الآتي يوجب إغلاق الباب؟ لأنها رأت نفسها تفعل هذا قبل أن تفعله. قبل أن تحمل الماء الساخن من المطبخ، وتتقدم به إلى هناك. لأنها استطاعت معرفة ما ينتظرها، في الغرفة الموصدة، مثل عرافة رسمت مستقبلها بنفسها. رأت اختيارها يتحقق قبل أن يكون. أغلقت الباب لأن الأمر لن يكون إلا وراء باب مغلق،

داخل غرفة موصدة،

بين كائنين متساويين في التصميم، ثالثهما جسد ميت تراه ممددا هناك. مسجي في عريه الشمعي الملتمع تحت الضوء، وخاضعا مستسلما للثقل العامل فيه فركًا وتنظيفًا.

صارت عند السرير وتوقفت. لم ترفع القوية رأسها لأنها كانت مستغرقة في المناجاة، ولحوحة في دعوة زهرة الحياة. لأن بعض الماء الرغوي كان يقطر على الفراش، ويسيل متحدرا بين الساقين الأكثر انفراجا. لأن بعض العرق كان يرشح منتثرا في الهواء، من وجه انسحبت منه ملامحه وهاجت في جماع اليدين مع أعضاء ميتة.

"ضعي الماء"، قالت بصوت متحشرج، مستعاد.

"إنها ميتة!"، قالت، ووضعت الوعاء.

سكنت حركة القوية، لكنها لم ترفع رأسها، ولم تـزح يديها عن المكان الذي كانتا تتعاملان معـه. اقتربـت منهـا ومدت يدها إلى ظهرها المنكب. مررتها فوق حدبة انحنائتـه لملامسة رهيفة، ثم أخذت تهبط تارة وتصعد تارة. استقامت القوية على خطوط الملامسة دون أن تستدير، لكنها أحسـت باليد تمسك بكتفها، وتبقي.

"إنها ميتة!"، عادت تقول، ولامستها تمامـا بجسـدها الذي تواطأ، مع يدها، مشاركًا التحرش بالقوية.

"انظري هنا"، خاطبتها بثقة، وبصوت متزن وخفيض. نظرت القوية، اللصيقة بها، ورأتها. كانـت تعـالج سـعار جسدها، الذي تفتق على هصرة الأصابع لثديها، بالالتصـاق العازم بها. بملامسة كل جزء ناتئ منها. كأنما مجسات دقيقة التحسس نفرت من مسامها، وأطبقت دابقة على جسد القوية، تنغل فيه وتستحثه.

"هنا!"، وأخذت أصابعها المرتعشة تفك أزرار القميص الأسود.

هنا!"، وطفق صوتها يردد بتسارع.

"هنا!.."، وتعري نصفها العلوي بلا القميص المخلوع، ثم تناولت يد الأخرى وسحبتها نحو الصدر النـافر، تحـت النحر الذي ينبض. ربضت اليد الغريبة ثقيلة، مترددة، فـي البداية، غير أنها لهثت دانية من وجهها المتعرق: "إنه حـي. إنه قوي. جربي. لا تخافي. ألم تمتحنيه من قبل؟..إنه جميل. اقبضي عليه. تحسسيه..إنه حي!"..

وتصاعد لهاثها صهيلاً.

تجاسرت، إذ التحمت بها تماما.

عند طرف السرير المرتجف.

علي مرأي من الجسد المسجي.

وراء الباب المغلق.

في الغرفة الموصدة.

..وكان طائر الموت يخفق، بلا صوت، ويفرد جناحيه الأسودين وسع المكان.

٣- بين التاسعة والعاشرة

هو آخر الوافدين وأكثرهم ترجمة لداخله.

قال، فور وصوله، داخلاً متلفتًا إلى الحاضرين، غيـر قادر على التركيز:

"هناك حشد من الناس!... "، وهبط بجسده على المقعد الفارغ. أصبعه ما تزال تشير إلى الأرض. ضحك المضيف مستخفًا، وعلق قائلاً:

"لا تخف. إنها سهرة الاغتسال الأخير. الدفن غدا. "

بدا الوافد أشد اضطرابا، إذ أربكه التفسير بدلاً من أن يزيح مخاوفه. قال وهو يفرك كفيه ببعضهما:

"الدفن؟!.."، وأخذ يحدق في وجوه الجالسين المتباينـة في درجة انجلائها وسط الإضاءة الباهتة.

بين له المضيف بأن السيدة التي تقطن فـي الطـابق الأول قد ماتت. هذا كل ما في الأمر. وأضاف بنبـرة فيهـا اصطناع اللامبالاة، أو الإيحاء بأن الأمور على ما يرام:

"أمي وأختي معهن في الأسفل. وأبـي خـرج إلـى المقهى. "

ثم، وبعد لحظات، أكمل وهو ينظر إلى ساعة يده:

(لن يعودوا قبل ساعة. الجو آمن.)

(كان الوقت بعد التاسعة بأربع عشرة دقيقة.)

غير أن تلك المقدمة لم تهدئ من روع الوافد الأخير. لقد شعر بأمر ما أقلقه، غير أنه لم يستطع تحديد ماهيته. إنه الانزعاج. أجل، هز رأسه بعصبية، مؤكدا على الكلمة التـي راودته: "الانزعاج"! هذا ما شعر به قبل أن يصل إلى البناية. خفق قلبه حين صار في الشارع. استعاذ بالله مـن شـياطين هذه الليلة الخفيين. "هي ليلتهم!": حدث نفسه مفكرا، متخـيلاً الذين ينتظرونه هناك. الاجتمـاع. جلسـة الأحاديـث فـي الموضوعات الكبيرة. القضايا الخطيرة. طـرق التفاصـيل الصغيرة والاشتباك حول مضـامينها ومعانيهـا. الأفكـار ومحاولات الجميع قدح زناد تفكيـرهم لتفكيـك أسـرارها. إنارتها بوهج من الاجتهادات المبادرة..؛ لحظتها، توهجـت الكلمة الأخيرة في ذاكرته وتردد صدي فاتحة المسؤول:

(المبادرات مطلوبة، إنما يجب أخذ الحيطة والحـذر. الحكمة الحكمة. فكما في العمل كـذلك فـي التفكيـر. هـذا أساسي. وأيضا، علينا الاحتكام إلى المركزية العليا صـاحبة

التجارب الكثيرة، والخبرات الطويلة، والنظرة الثاقبة. ففـي قرارها الأخير خلاصة المعرفـة. لا بـأس فـي الاجتهـاد والاختلاف فيما بيننا. لكننا، وهذا في غاية الأهمية، وعلـيكم جميعا أن تحفظوه مثل أرقامكم وأسمائكم السرية، أقول علينا الركون إلى مركزيتنا العليا في كل اجتهاداتهـا وتعليماتهـا. مركزية القرار ومركزية الاجتهاد. أعيد: فكما فـي العمـل كذلك في التفكير. بدء الاجتماع).

كان هذا في المـرة الأولـي. أمـا الآن، فلقـد قـال المضيف:

"هل نبدأ الاجتماع؟ إنها التاسعة والثلث. "

اعترض الوافد الأخير بصوت مرتعش:

"لا، لا. ليس الآن. "

نظر إليه أكبرهم سنًا، وخاطبه بلهجـة شـبه حـادة، صدرت عن وجهه الذي غلفته عتمة خفيفة:

"ما بك؟ العدد اكتمل، ولسنا بحاجـة إلـى أحاديـث هامشية. هذا اجتماع استثنائي. لندخل في صلب الموضـوع. ".

"لا. إني أعترض!"

سأل آخر، وكان جالسا عند العمود القريب من الباب:

"لماذا؟"

"لأنه خائف... "، ورد المضيف بنبرة فيها قـدر مـن الاستخفاف المستفز. ثم التمعت عدستا نظارتيـه السـميكتان عند تحريكه لرأسه.

"أجل، إني خائف"، وحرك كفيه أمامه أولاً ثم أرخـي ذراعيه، فهبطتا إلى جانبي المقعد باتساق مع تهـدل كتفيـه. تفحص الحاضرون وجوه بعضهم بعضا، وعادوا ينتظـرون من الخائف أن يفسر لهم خوفه. ساد صـمت قبـل أن يبـدأ الأخير حديثه المرتبك:

"لست خائفًا. أعني، لست خائفًا بالمعني المـ... حسنًا، إني قلق من أن أعلمت بهذا الاجتماع الاستثنائي. يعنـي... كلكم تعرفون أني ملتزم ولست جبانًا. كلكم تعرفون هذا بـلا شك، ولأن... "،

قاطعه المضيف ساخرا هذه المرة:

"أنت واثق من نفسك إلى حد كبير. "

احتج كبيرهم:

"دعه يكمل حديثه. "

"لكنه اعتمد على شهادة لم يمنحها له أحد!"

تهدج صوت القلق وعلا في وجه المضيف مستنكرا:

"ماذا تقصد بكلامك؟ قل. هل تشكك في التزامي؟"

زفر المضيف طويلاً، فاندلع خطـان أبيضـان مـن منخريه، ثم ارتفعا منفلشين في سحابة الدخان المعلقة. ركـز وضع نظارتيه جيدا، وقال مستعيدا هدوءه المنفلت:

"العفو. لكن أحدا ليس فوق الشبهات. دون ذلك يتهلهل التنظيم!"، وجال بعدستي نظارتيه السميكتين متفحصا صـدى كلماته على وجوه المجتمعين. أحجم القلق المسـتنكر عـن الكلام، إذ فوجئ بالإيضاح، واستنجد بالآخرين يستنطق ردهم على هذا الهجوم التشكيكي غير المتوقع. تنحنح الجالس قريبا من الباب، عند عمود الزاوية، وقال محاولاً تبديد التوتر الذي تصاعد:

"لابد أن مضيفنا لهذه الليلة لا يقصد تشكيكًا بـالمعني القطعي والحصري بشخص معين. هذا ما لمسته أنـا علـى الأقل. فالرقم ثلاثة واحد منا، له مالنا وعليه ما علينا. ألـيس كذلك؟..غير أن في المسألة تحسبا من جهة المضيف، وهـذا اجتهادي الشخص، في الوقت الذي رأينا فيه جميعنا تخوفًـا

ما، أو قلقًا، كما أوضح ثلاثة، شـعر بـه لحظـة إعلامـه باجتماعنا الاستثنائي هذا. "

رجع كبيرهم سنًا برأسه إلى الوراء، فاختفت ملامـح وجهه في العتمة الخفيفة، ولم يبن من نصفه الأعلـي سـوى بياض قميصه الصيفي، وإشعاع كامد من جبهته العريضـة. ردد في نفسه: "تطرف الشباب ونزقة مـن هنـا، وميوعـة الوسط وتذبذبه من هناك."

فكر خامسهم الذي أبقي على صمته حتى الآن: "وفسر الماء بعد الجهد بالماء!"

"إذن؟"، تساءل الخائف القلق.

خرج الكبير بوجهه من طبقة العتمة، ودخـل تخـوم منطقة الوضوح. تلك الدائرة الفاقعة التـي كشـفها الضـوء الساقط من مصباح جانبي، واطئ، ركزت قاعدته خلف مقعد المضيف، وانثني جسمه القوسي فوق كتفي الصامت، فيمـا تدلي رأسه المنير في الوسط حيث تعرت أحذيتهم تماما على الأرض. كان كبيرهم الوحيد الذي انتعل صندلاً خفيفـًا بـلا جوارب. مد يده إلى علبة سجائر القابعة على الطاولة بينهم، وقال، بينما أصابعه تسل لفافة وتمسدها بضغطات ناعمة:

"إنني أري توترا لا داعي له أصلاً. فرقم ثلاثة لم يفعل سوى أنه أبدي تخوفه من هذا الاجتماع الاستثنائي.."

قاطعه ثلاثة: "منذ أن أعلمت به. أحب أن أؤكد علـى هذه النقطة، وآسف للمقاطعة. "

أشعل كبيرهم لفافته، ونفث دخانها الذي تصاعد فوقـه وتكثف في السحابة الزرقاء، المعلقة فوقهم.

"حسنًا. منذ أن تم إبلاعه بالاجتماع، ساور ثلاثة قلـق ما عليه أن يفسره لنا الآن"، وصمت.

شعر آخر الوافدين بضرورة أن يرتب أفكـاره هـذه المرة. استجمع كل هواجسه وما أيقظت فيه مـن تحسـبات، وعزم على البدء بالحديث. لكنه تردد حين اكتشف أنه لـيس لديه منطق تلتئم من خلاله تلك المخاوف. ثمة ما هو خفـي على العقل والإدراك. ثمة ما هو خـاص بالشـعور فقـط. الشعور بأن الاستثنائي في هـذا الاجتمـاع يـبطن خطـرا مجهولاً. خطرا رج كيانه لحظة أن هاتفه هـذا اللعـين، ذو النظارتين الغليظتين والعينين الفأريتين، معلما إياه بالاجتماع. كان مزمعا على الاستفسار عن بعض التفاصـيل، غيـر أن

الرقم "اثنين" أنهي المكالمة. إنه يتذكر، الآن، كلامه الموجز، الباتر:

(- الثلاثاء القادم.

- ليس موعدنا الدوري. إنه الخميس. بعد عشرة أيام.

- استثناء!

- أين؟

- في منزلي. الساعة التاسعة..ليلاً.)

إنه يتذكر، الآن أيضا، أن شرا استوطن ذلـك اليـوم بكامله. أجهضت علية في السعودية بعـد حملهـا بحـوالي شهرين. خابرهم زوجها إثر مكالمة "اثنين" بساعة. وفي تلك الليلة أعلن مذيع التليفزيون، عند نهاية نشرة الأخبار، أن هزة أرضية خفيفة ضربت شمال البلاد. طلبت أمـه رحمـة ا ، بينما فكر متوجسا: "المخفي أعظم!". وعنـدما لـم يسـتطع مواصلة القراءة في "الدفاتر الفلسفية"، الجزء الثاني، تمدد في سريره وأطفأ النور. عندها، فطن إلى أنه يكـره الاسـتثناء. ينفر من غير العادي. يجده ثقيلاً لا يحتمل؛ إذ فيه المفـاجئ واللامنتظر. فيه الخروج عن المـألوف، وبـذلك يتضـمن احتمالات الخطر!

انتفض، وهتف كمن عثر على مفتاح البداية:

"إنني قلق لأنني أشعر بخطر هذا الاجتماع. "

سأله الخامس الذي تكلم لأول مرة:

"أنت لم تفسر لنا شيئًا!"

فأتبع بعصبية من لا يتقن الكلام:

"هذا كل ما في الأمر. ليس لدي تفسير دقيق. "

ضرب ذو العدسات السميكة ركبتيه بكفيه، وأخرج صوتًا محتجا متأففًا:

"ماذا؟!..هذا هراء"، ونظر إلى ساعة يده ثانية، وأضاف، متوجها صوب كبير السن:

"أقترح إنزال العقوبة برقم ثلاثة. إنه يعيق الاجتماع. الوقت الآن العاشرة إلا ثلاثًا وعشرين دقيقة. سيأتون بعد قليل. "

استفسر الخامس مضطربا، بينما كان يدقق في ساعته بحرص:

"من؟ من هم؟"

"أهلي!... "، رد "اثنان" مجففًا عرق جبينه بظاهر ذراعه: "الجو حار!" تراجع كبير السن إلى الوراء، وغاص

رأسه في العتمة، فيما طفرت في داخلـه مخـاوف مباغتـة ترجمها على الفور:

"أقترح فض الاجتمـاع حـالاً. هـذا عبـث وفشـل مريع..هيا!"

"ماذا تقصد؟!"، سأل القريـب مـن البـاب: "نفـض الاجتماع وننتهي؟"

"نؤجله إلى وقت آخر. "

اعترض الخامس بحماسة: "لكنه اسـتثنائي، ويجـب اتمامه!"

"لن ينجح"، جزم الكبير حاسما.

هب المضيف ناهضا، وطوح بذراعيه كأنمـا علـى خشبة مسرح مدرسي:

"إنه تسليم بخطـة ثلاثـة. لقـد نجـح فـي تـدمير الاجتماع.."، ثم أخذ يحدق فيه مباشرة، وقد ومضت عينـاه خلف عدساته السميكة، وسدد لوجهه أصبعين مرتجفين:

"أنا أتهمك يا رقـ.."

لم يكمل المضيف جملته؛ إذ بترتها طرقـات متتابعـة على خشب الباب، وطغي علـى صـوته رنـين الجـرس

المصلصل الذي كهرب الجو... فشلهم. تسمر الجميـع فـي أماكنهم لبعض اللحظات، قبل أن يقف كبيرهم، باضـطراب كلي، ويدخل في دائرة الضوء الفاقعة:

"من؟!"، هتف بصوت مخنوق.

تلجج المضيف. نظر إلى ساعته، ابتلع جفاف حلقـه، وتلفظ بكلمات متهاوية:

"هم. أهلي. لابد أنهم أهلي. "

حثه الخامس مومئًا نحو الباب الذي ابتعد عنه رفـيقهم كالممسوس:

"اذهب وافتح الباب. ". همس، مقربا رسغه الأيسر من عينيه، حيث كانت الساعة تشير إلى العاشرة إلا أربع دقائق.

خطا المضيف صوب الباب بتـردد واضـح. قـال، محاولاً طمأنة ضيوفه الجامدين في الدائرة الفاقعـة، رافعـا بأصبعه إطار نظارته إلى الأعلي:

"في وقتهم الصحيح. ألم أقـل ذلـك؟"، وغـاب فـي الزاوية، خلف العمود، حيث الباب.

لم يسمع الجميع، في البداية، غير أكرة البـاب وهـي تدور وتئز. ثم كان صوت صرير الخشب وهو يفتح. أنفاس

عميقة لاهثة وسط صمت قصير، قصير... وبعـدها دخلـت الأجسام مقتحمة المكان! مكتسحة كل شيء! مالئـة الهـواء بأصواتها الزاعقة! طارحة الجميع على وجوههم... والأرض هي الملاذ!

تحطمت العدستان السميكتان فوق جبهـة المضـيف، الذي بات يردد بلا انقطاع: "إنهم هم. في وقتهم الصحيح. ألم أقل ذلك؟..إنهم هم. في وقتهم.."!

تقطع سير إحدى فردتي الصندل فانخلعت عن القـدم، في الوقت الذي كان يفكر كبير السن: "إنـه يهـذي... هـذا النزق. يهـذي. الرحلـة مـا تـزال فـي أولهـا. ولكـن كيف!..ومن!... "

تمزق قميص الذي كان قريبا من الباب. أحس برطوبة البلاط في جلد صدره. تساءل ساخطًا على نفسـه: "غبـاء. لماذا هي المسألة أصلاً؟ غباء. لماذا الغباء أصلاً!"

تقطر الدم من أنف خامسهم، وأخـذ يلـون بـالأحمر زجاج ساعته الماثلة أمامه: "إنها العاشرة. تمام العاشرة..كما توقعت. ألم يقل الأعمي المتبجح أنهم سيأتون بعـد سـاعة؟ دقيقون هؤلاء الـ... "

أما آخر الوافدين، وأكثرهم تخوفًا؛ فلقد استكان أخيـرا مستسلما لوضعه الحالي. هدأت روحه، وراحت أفكاره تنتظم جلية، جالية تلك النقطة الاستثنائية التي ضـخمت مخاوفـه. ليس فقط لأنه كان اجتماعا استثنائيا ثارت هواجسه. لا. إنما نبتت الهواجس، وتحولت إلى قلق وخوف، ثم مـا لبثـت أن تمثلت له خطرا محدقًا عندما خيل إليه بأنه شـم رائحـة دم! أجل. لقد تغلغلت فيه رائحة الدم عند خطوة الدرجة الأولـي في البناية. لم ير دما، لكنه تعبأ برائحته، فارتقي الـدرجات قفزا. كان يفر من الدم المجهول ليصـطدم بسـواد النسـوة المتطلعات إليه بوجوه كالحة. "أيـة شـياطين تسـرح هـذه الليلة!": فكر، وقد توثبت في وجهه شرور العـالم. ثـم... ، وها موت يقيم تحته.

لقد اجتاز الدم، وارتقـي المـوت، وجابـه التشـكيك والاتهام، لكنه... أجل: لكنه مستكين وروحه هادئة!

لم يندهش من حالته الجديدة.

أمنع يفكر في تجلياته الطازجة.

استعاد إشارات الشر الـثلاث التـي تلـت مكالمـة المضيف. حاول فك رموزها. في البداية أجهضـت أختـه:

وها حلمه القديم بالنقاء قد أجهض. ثمة تسريب للأمر! وتبع ذلك خبر المذيع عن الهزة الخفيفة، وتوقعه لما هـو مخفـي وأعظم: وها هم شياطين يملأون المكان ويمزقون المستور.؟ ثم انغلاق فهمه حيال "الدفاتر الفلسفية": وها حافظو الدروس في هشاشة القش. يتقنون الكلام، بينمـا تطـيش حيطـتهم، ويتلاشي حذرهم.

كان يضج بأصحاب الأنفاس العميقة، اللاهثـة، وهـم يقلبون المكان رأسا على عقب. يحس بوطأتهم وهم يدوسون على قفاه وأقفيـة الآخـرين. يسـمعهم ينشـرون أرقـامهم وأسماءهم السرية على سحابة الدخان الأزرق. يهزأون منهم، ويلمحون إلى أن كل الأشياء مخترقة. يفكر وقد أيقـن مـن حدسه: "انكشف المخفي الأعظم!"

إذن؛ لماذا الخوف؟

ربما كان هذا السؤال أساس هدوئه واستكانته.

سوف يجابههم..حسب طريقته الآن.

"أنت!.."، وضغطوا بأحذيتهم على قفاه أكثر.

"ثلاثة. ". (لم يقل لهم: كنت ثلاثة... كما قرر لنفسه.)

"ونحن؟"

"الشياطين!"

"ماذا؟... يا ابن الزانية!!"

فأجـاب متأوهـا، رغـم الـركلات النازلـة عليـه كالصواعق:

"الشياطين..هي ليلتكم... الشياطين... "

وتكفلت الضربات المجنونة بكتم بقية كلامه النـازف، متقطعا، ومع دفقات الدم، من فمه اللصيق بالأرض:

"البائنين... في النهاية... "

..فلم يسمعه سواه.

الكاتب ينتهي

طوح بالقلم بعيدا، وشتم صانعه الأول. سمع ارتطامه بالحائط الغائب هناك. لم يرَ الحائط، إذ لم يرفع عينيه أبـدا. ظل منكبا فوق الأوراق المعبأة بالسطور التي كتبها. لم ينظر إلى حيث سقط القلم. كان يجمع رأسه المتفجر بـين كفيـه، وينصت إلى دوي الكلمات المكبوتة. ثمة التصـدع الـذي لا يحس به سواه. الغيظ المتصاعد الآخذ بإرجـاف أطرافـه. الغضب المتنامي والشعور بالإحباط. هذا ما يصدمه في كـل

مرة. لكنه لا ييأس ولا يمل. ينسي، أو يتناسي، ويؤكد لنفسه أن لا حياة بغير الاستمرار. لا مبرر لوجوده دون المواصلة.

لكنها الكلمات الأخرى في كل مرة.

الكلمات التي لا تخـرج. تلـك الكلمـات المكبوتـة، المخنوقة، المخفية في أعماقه والمدفونة، بوعي منه، تحـت طبقات الحذر والتحسب. هذا هو التصدع الدائم، وتلك هـي المطارق غير المرئية. أما الأوراق، فبيضاء كأنما لم يخـط فوقها كلمة! الأوراق دائما بيضاء، والقلـم يدهشـه بجفافـه وسرابية كتابته البكماء. لكنه تكلم الآن. لم يعد أبكـم. القلـم أصدر صوتًا عند ارتطامه بالحائط الغائـب وراء العتمـة. هناك. نظر هناك..وكانت عتمة.

لا أحد سواه. وحيد. غرفته ساكنة في هدوء الليل.

كان قد أطفأ النور، واكتفي بإضاءة المصباح الصغير على مكتبه. هو البؤرة الوحيدة خارج بحيرة العتمـة. هـو، والمكتب، ودفتر الأوراق، وكوب القهوة الكبيـر، والسـاعة التي كفّت عن إحصاء الوقت. تطلع إليها، أمامه، ورآها تشع بخفوت وقد انتصبت بلا حركة. تأمل قبتيهـا الزجـاجيتين، المغلقتين، ثم استقرت عيناه على رملها. كان رابضا في قعر

القبة السفلي، وردي اللون، ومتهضبا بملاسة. متكوما بذراته الرملية ذات الإشعاع البلوري الكامد. ملتمـا علـى نفسـه ومحتويا، الآن، الحكايات وراء جدرانه الزجاجية، المحدبـة. خازنًا، اللحظة، كافة تفاصيل الأسرار.

"أجل. الأسرار!"؛ قال، محدثًا نفسه، هذه المرة، إنمـا بمرارة عارمة طردت عن وجهه ابتسامة السخرية التي بـدأ بها كتابة حكاياته.

ها قد انتهى من الحكاية الأخيرة.

ها رمل الوقت هضبة كامنة هناك.

رمل الوقت يتلون بطيف حكايته الأخيرة. يختزن كلام الرجل الذي لم يعد خائفًا. يضم بقية جملته التي انسفحت مع دمه، فلم يسمعها سواه. أجل: لم يسمعها سواه: هو المختنـق بالكلمات الأخرى. الكلمات المكبوتـة، المخنوقـة، المخفيـة والخافية – في الوقت نفسه – وجهها الأكثر جلاء.

وها هي تصدعه، وترعشه بشدة وتطلق مـن فمـه، أخيرا، صوتها الذي كبته ولم يكتبه:

"كم من النذالات يحوي هذا العالم!

آخ! آآآ..خ!....

كم من الأوغاد سيطلقهم؟!... "

ضجت الصرخة كالطلقة، ورددت الجدران صداها في طبقات العتمة. كانت الصوت الأول الذي أخرجه منذ ساعات وساعات. لم يتساءل إن كان ما أطلقه صوته، أم هي صرخة الكلمات. كفاه أنه أطلق، الآن، عبر الهواء الساكن هنا، فـي الطابق الثاني، مكبوت عمر هو عمره. كفـاه أن احتجاجـه الصريح قد نطق به..وإن داخل غرفة مغلقة.

غير أن رأسه مازال عامرا بالضجيج.

يشعر به. يحسه يدق جدرانه بلا توقف. يكـاد يمـلأ المكان ويقتلعه، قسرا، من على مقعده وراء المكتب. يأتيـه عميقًا من بين يديه القابضتين على رأسه. ويأتيـه، أيضـا، واضحا محسوسا من هناك! من عتمة الردهة. يحرر أذنيـه من ضغطة كفيه، وينصت مشدوها"..ربما تساءل عمن يكون زائر هذا الوقت المتأخر.

أجل.

إنه ضجيج الطرق على الباب. في الردهـة المعتمـة القريبة. يصل إليه صاخبا، ملحاحا، عنيدا، شرسا حتى أنـه تخيل الخشب وقد انخلع عن إطاره. أيقن أن الطرق حقيقـي

وليس وهما. قام من فوره وأسرع نحـو المـدخل. اقتـرب الطرقُ أكثر وازداد شراسة. اضطرب قليلاً، لكنه ما قدر إلا على محاولة أن يفتح الباب. جرب، مرتجفًا، ونجـح، بعـد إضاءته للنور، في إسكات الطرق وضجته: فتح الباب.

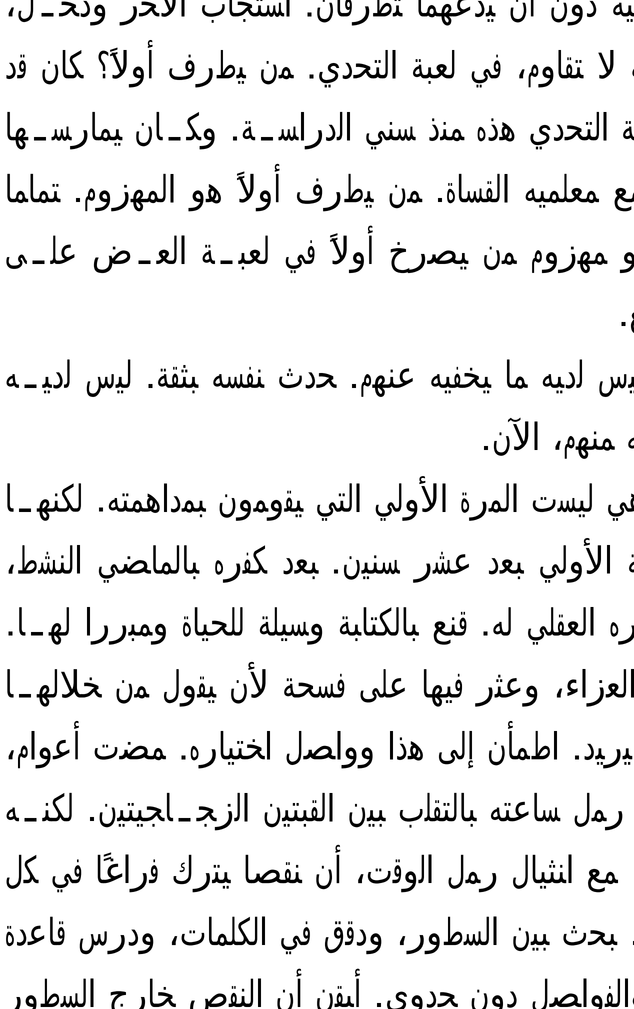
وكان الوضوح في تكشفه ولهاثه المكتظ على العتبة.

وكانوا هم!...

وقفوا ينتظرون أن يأتي بتصرف يـنم عمـا كـانوا يتوقعونه منه. أن يصرخ بسبب المفاجأة. أن يتمتم بـأن مـا يراه غير معقول ولا يصدق! أن يغمي عليه. لكنه لم يقم بأي من هذه الأمور. رأوه يحدق في وجـوههم أولاً. ثـم رأوا، وبعيونهم المجردة، المدربة على رؤية دقائق الأشياء، ابتسامة ساخرة تطفح على وجهه الذي أربكه السهر. تلفتوا إلى وجوه بعضهم، فيما كان يتنحى لهم ويمضي، مخليا الردهة، نحـو غرفته شبه المضاءة.

جلس على مقعده ينتظر وصولهم إليه.

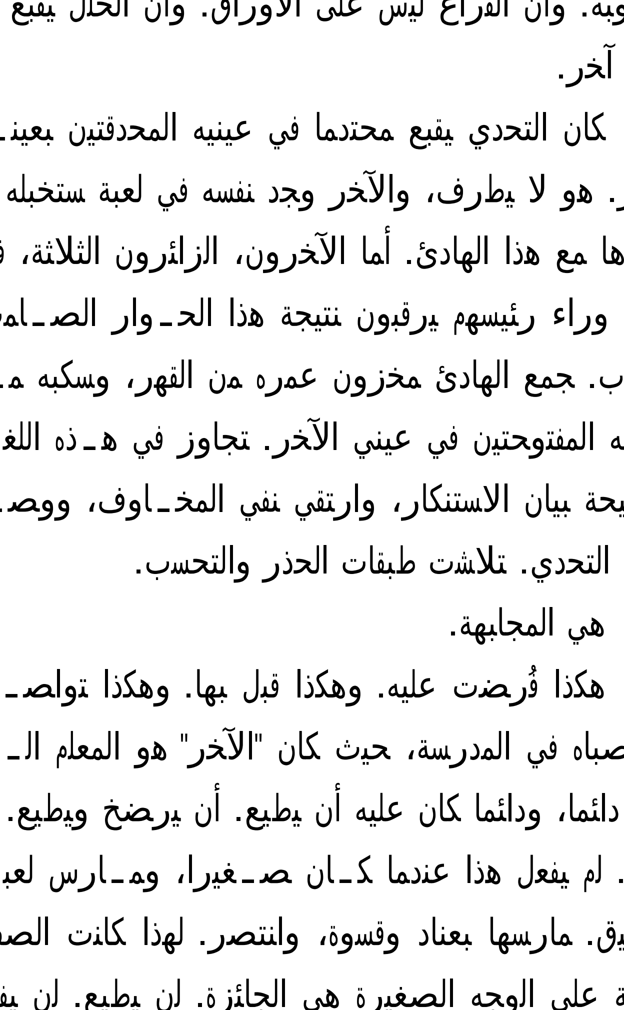
راقبهم يدلفون واحدا واحدا. ازدحمت الغرفـة بهـم. كانوا أربعة. استدار يواجههم، حين أدرك اكتمـال عـددهم، وشاهد أحدهم يدنو من مكتبه مترددا بعض الشيء. شـخص



إلى عينيه دون أن يدعهما تطرفان. استجاب الآخر ودخـل، بغريزية لا تقاوم، في لعبة التحدي. من يطرف أولاً؟ كان قد تعلم لعبة التحدي هذه منذ سني الدراسـة. وكـان يمارسـها بإتقان مع معلميه القساة. من يطرف أولاً هو المهزوم. تماما مثلما هو مهزوم من يصرخ أولاً في لعبـة العـض علـى الأصابع.

ليس لديه ما يخفيه عنهم. حدث نفسه بثقة. ليس لديـه ما يخيفه منهم، الآن.

هي ليست المرة الأولي التي يقومون بمداهمته. لكنهـا المداهمة الأولي بعد عشر سنين. بعد كفره بالماضي النشط، واستنكاره العقلي له. قنع بالكتابة وسيلة للحياة ومبررا لهـا. وجدها العزاء، وعثر فيها على فسحة لأن يقول من خلالهـا ما كان يريد. اطمأن إلى هذا وواصل اختياره. مضت أعوام، واستمر رمل ساعته بالتقاب بين القبتين الزجـاجيتين. لكنـه اكتشف، مع انثيال رمل الوقت، أن نقصا يترك فراغًا في كل ما كتبه. بحث بين السطور، ودقق في الكلمات، ودرس قاعدة النقاط والفواصل دون جدوى. أيقن أن النقص خارج السطور



المكتوبة. وأن الفراغ ليس على الأوراق. وأن الخلل يقبع في مكان آخر.

كان التحدي يقبع محتدما في عينيه المحدقتين بعيني الآخر. هو لا يطرف، والآخر وجد نفسه في لعبة ستخبله إن خسرها مع هذا الهادئ. أما الآخرون، الزائرون الثلاثة، فلقد وقفوا وراء رئيسهم يرقبون نتيجة هذا الحوار الصامت، العجيب. جمع الهادئ مخزون عمره من القهر، وسكبه من حدقتيه المفتوحتين في عيني الآخر. تجاوز في هذه اللغة الفصيحة بيان الاستنكار، وارتقي نفي المخاوف، ووصل حدود التحدي. تلاشت طبقات الحذر والتحسب.

هي المجابهة.

هكذا فُرضت عليه. وهكذا قبل بها. وهكذا تواصلت منذ صباه في المدرسة، حيث كان "الآخر" هو المعلم الذي يأمر دائما، ودائما كان عليه أن يطيع. أن يرضخ ويطيع. لن يطيع. لم يفعل هذا عندما كان صغيرا، ومارس لعبة التحديق. مارسها بعناد وقسوة، وانتصر. لهذا كانت الصفعة الهائلة على الوجه الصغيرة هي الجائزة. لن يطيع. لن يفعل الآن ما لم يفعله صغيرا، رغم العشر سنين من الرضوخ

لضرورات ما رآه، حتى هذه اللحظة، وأسماه: "الاحتكام إلى عقل النجاة"!

وكانت الصفعة!

صفعة اليد الهائلة على الوجه الكبير.

وكانت الحركة الضاجة لفوضي الآخرين الثلاثة، الذين انطلقوا في الغربة يمارسون لعبتهم المفضلة. رآهم يقلبـون الكتب فوق الأرفف ويلقون بهـا علـى الأرض. ينتزعـون اللوحات عن الجدران، ويدوسون زجاجهم بأحذيتهم. يركلون الشظايا وينقلبون عائدين إلى الكتب. وسمع صوت رئيسـهم، وسط الفوضى، يخاطبه وقد استند إلى حافة مكتبه:

"أعطنا فضائحك الأخيرة. "

لكنه وجد القدرة على المواصلة:

"ماذا تعني؟ أنا لا أملك فضائح. "

فاشتدت نبرة الرئيس وغلظت:

"قصصك الجديدة. نحن نعرف كل شيء. أعطنا إياها بنفسك ولا تدعني أتناولها بيدي. لن ألوث أصابعي بها. "

ثارت غضبته: "ليس لدي ما هو قذر تخشي أن يلوثك. "

"حسنًا.."، صاح الرئيس ملتفتًا صوب الثلاثة: "خـذوا الأوراق التي على مكتبه،" وأشار بأصبعه إلى تلك التي أنجز كتابتها قبل مجيئهم. فانقذفوا على الفور وخطفوا أوراقه.

"ليس في القصص ما يشكل تهديـدا لكـم. "، هتـف محتجا، غير قادر على تصديق ما يسمعه.

بادره الرئيس من جديد:

"القصة الأخيرة. أليست تشهيرا بعملنا السـاهر علـى سلامة الجميع؟.."

فغر الكاتب فمه مصعوقًا؛ إذ كيف عرفوا بما كتبه ولم يجف حبره بعد!. غير أن مسلسل المفاجآت لم ينقطع. واصل الرئيس حديثه، مشددا على كل كلمة يقولها:

"ثم إنك قمت بتعريض رجلنا للكشـف. لقـد رسـمت ملامحه من بين المجتمعين الخمسة. "

رد الكاتب، ملتقطًا مجرى السياق العجيب، داخلاً فـي منطقة دون أن يملك فهما لحقيقة ما يجري معه:

"هذا ليس صحيحا. ما فعلته مجـرد إنـارة لـبعض التفاصيل الممكنة لرجلكم. "

"ونحن؟"

أطلق الرئيس ضحكة هازئة، وضرب سطح المكتـب بقبضته، متحولاً إلى الغيظ المستشيط:

"قلت إننا الشياطين! لا تنكر. ألم تقل على لسان التافه أننا شياطين بائنون؟"

"أفعالكم.."، قرر الكاتـب أن يواصـل هـذا الحـوار المجنون، متخبطًا فوق لا معقولية ما يسمع. لكـن الـرئيس قاطعه:

"ثم، ما حكاية الفتاة القاتلـة فـي القبـو؟.."، وانتتـر كالمصعوق إذ تذكر أمرا آخر: "ألا تخجل! كيف تصور مـا جرى بين المرأتين في حجرة الميتة؟! هذه علاقـات سـرية ينبغي عدم التطـرق إليهـا. عليـك أن لا تخـدش حيـاء المجتمع... "، وعاد ليهوي بقبضته على سطح المكتب:

"هل تصدق بأننا سوف نسمح لك بنشـر كـل هـذه القذارات؟"

فانتفض الكاتب عند هذه الملاحظة الأخيرة:

"ذلك ليس شأنكم. للنشر دوائر معنية. "

استراحت ملامح الرئيس، وهز رأسه بإشفاق:

"لا تدعني أضحك!

عاود العناد الكاتب، فتحداه:

"لست مهرجك ولا أبغي إضحاكك. "

عندها، ثار الرئيس ورفع يده في الهواء، محدقًا في عيني الكاتب، قبل أن يهوي بها على وجهه. ضج رأس الأخير بأصوات كل الكلمات التي خنقها، وكبتها، فلم يكتبها. استجاب لتجدد التحدي المفروض عليه، ونهض بوجهه المصفوع أكثر عزما على اختراق الآخر. سدد نحو عينيه جمرتين متوهجتين، منتظرا، دون أن يتحسب هذه المرة، ما ستؤول إليه الأمور. شعر الرئيس بطاقة التحدي لدى خصمه، ورآها متفجرة من حدقتيه المحمرتين. هوى على وجهه صافعا إياه بكامل قوته. ارتج رأس الكاتب مفلتًا صوت وجع، وبصق:

"نذل. "

فكانت الصفعة الأخرى، وقد انتصب الرئيس مهتاجا،

"جبان..ووغد"، وبصق الكاتب دمه.

زعق الرئيس، مشيرا إليه، مصدرا أمره:

"خذوه. "

فانقض الثلاثة عليه. سحبوه من خلف مكتبه، وجـروه وسط غرفته التي تغطت أرضها بشظايا زجـاج اللوحـات المقتلعة عن جدرانها، وبأوراق الكتـب الملقـاة مـن فـوق أرففها..والممزقة تحت نعـال أحـذيتهم. استسـلم الكاتـب لقبضاتهم اللاطمة، ولأذرعهم الجاذبة لجسده عبر الردهـة. لكنه، رغم هذا، كان يصله بوضوح صراخ الرئيس الهائج:

"أتسمع؟..إن الخطأ الذي لا نتعايش معه هو أنتم. كـل الأخطاء نتحملها..إلا أنتم!..هل تسمع؟..".

كان الكاتب يسمع كلام الرئيس في فوضى الصـراخ الموزع على الدرجات الهابطة. آلمته الركلات والقبضـات، غير أنه تابع نزوله. مر، مسحوبا، من أمـام بـاب البيـت المشرع. لمح النسوة المتشحات بالأسود. رآهن كتلاً متمعجة تتذبذب. ورأي، أيضا، بابا موصدا خيل إليه أن ثمـة طيـرا بشعا يحط عليه!

صدمته ركلة جاءت فوق ظهره. ترنح بين أذرعهـم، وتهالكت قواه. تحامل، واستمر بالهبوط.

وصل إلى الطابق الأرضي. توقف موكبه الصـارخ. انتظروا إلى أن نجح فريق الإسعاف في إخراج جثة رجـل.

كان الباب أضيق من أن يتسع لاثنين بالمرور عبـره معـا. تناهى إلى سمعه عويل امرأة متصل. اقشعر بدنـه لإيقاعـه الحيواني الصاعد من جوف القبو.

وأخيرا، ها هو الشارع. تحت سماء الليل الصيفي التي أرخت عليه، من عندها، نسمة هواء طازجة.

تلفت حوله، محاطًا بالقساة الثلاثة، وميز بفعل إنـارة الأعمدة، تلك المشاهد الشبحية:

عربتان يومض فوقهما ضوء متقطع، بينما يدفع إليهما بعض الرجال. كان أحدهم يجاهد ليحتفظ بنظارته المحطمـة على عينيه.

عربة إسعاف وقد أشرعوا بابها الخلفي. تقدم خطـوة ورأى، من نقطته، باطن حذائين مرفوعين لجثة ممددة فـي الصندوق المعتم.

بعض النسوة يرتـدين السـواد، يتهامسـن مخفيـات ضحكاتهن المكتومة، ويجتزن الشارع باتجاه الجانب الآخر.

أطرق إلى الأرض قليلاً. فكر، بهدوء وتأمل عميقين، في تفسير كل هذا الذي حوله. كيف يكون قبل أن يكـون؟! كيف رآه قبل أن يحدث؟! كيف وصفه قبل أن يتشخص؟! ثم

رفع رأسه إلى السماء. كانت سوداء ومثقبة بكثير من النجوم البعيدة.

وبعدها، أحس بهم يقتادونه نحو العربة البعيدة، الواقفة عند زاوية الشارع. استمهلهم، إذ فطن إلى أمر لم يفعله في غرفته. وعندما سألوه، ساخرين، أجابهم متطلعا إلى نافذته شبه المضاءة:

"لم أقلب ساعة الرمل. "

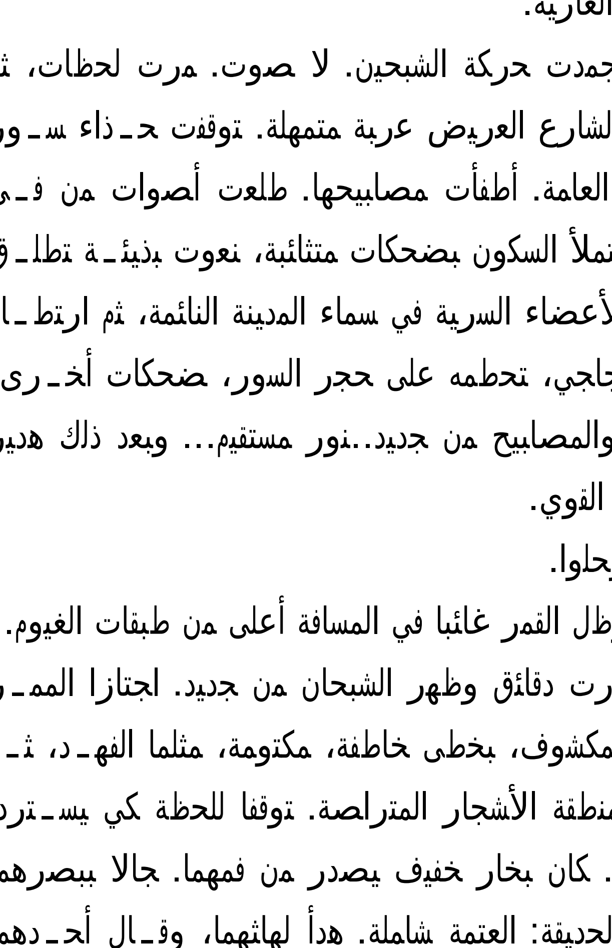
لم يفهموا. وقلبوا شفاههم مندهشين.

ما لم تقله الأشجار

لو أن الأشجار تنطـق، لقالـت عمـا رأت، وروتـه بحذافيره حتى آخر حركة. لكنها لا تستطيع. لم يعلمها أحـد. ظلت أسيرة الخلق الأول لها. الخلق الأول الذي لم يله تعديل أو تطوير. بقيت الأشجار تشهد وترى. تغضب وتفـرح. إلا أنها بكماء لا تكشف أسرار منتصف الليل. والحديقة العامـة مفروشة بأوراقها الميتة، ومقاعدها الخشبية التـي نخرتهـا الشمس وبرد الشتاءات.

كان الصمت صوت المكان الوحيـد. وكـانون هـو الوقت. والعتمة هي البوابة غير الموصدة.

ظهر شبحان فجأة. تسللا إلى الحديقة العامة من ناحية المدخل الجنوبي. خفيفان وحذران. لا صوت سوى ريح الليل الباردة، وخشخشة خطواتهما فوق التربة الرطبـة، المغطـاة بالورق اليابس.



تمايلت الأشجار قليلاً، لكنها ظلت في أماكنها تترصد، حابسة أنفاسها، بداية من نسغها الترابي، وصولاً إلى ارتجافة أذرعها العارية.

تجمدت حركة الشبحين. لا صوت. مرت لحظات، ثم عبرت الشارع العريض عربة متمهلة. توقفت حـذاء سـور الحديقة العامة. أطفأت مصابيحها. طلعت أصوات من فـي داخلها لتملأ السكون بضحكات متثائبة، نعوت بذيئـة تطلـق أسماء الأعضاء السرية في سماء المدينة النائمة، ثم ارتطـام جسم زجاجي، تحطمه على حجر السور، ضحكات أخـرى، سريعة والمصابيح من جديد..نور مستقيم... وبعد ذلك هدير المحرك القوي.

رحلوا.

وظل القمر غائبا في المسافة أعلى من طبقات الغيوم.

مرت دقائق وظهر الشبحان من جديد. اجتازا الممـر الأول المكشوف، بخطى خاطفة، مكتومة، مثلما الفهـد، ثـم وصلا منطقة الأشجار المتراصة. توقفا للحظة كي يسـتردا أنفاسهما. كان بخار خفيف يصدر من فمهما. جالا ببصرهما أرجاء الحديقة: العتمة شاملة. هدأ لهاثهما، وقـال أحـدهما

بصوت خفيض، متقطع: "جيد جدا. كـل شـيء كمـا فـي الحلم..أليس كذلك؟"

لم يأت الجواب مباشرة؛ إذ مرت دقيقة مشحونة قبـل أن يصدر الصوت الآخر: "أجل. كل شيء كما حلمت به، يا حبيبي. كل شيء!".

تطايرت ورقة جريدة نفختها هبة ريح والتصقت بساق المرأة. لم تكترث، إنما تراقصت في عينيهـا خيـالات فـي الجهة المقابلة. تيبست في مكانها، ووجـدت نفسـها تمسـك بذراع رفيقها وتضغط بتوتر. لحظ الآخر ارتعاشة الخـوف في أصابعها. نظر في وجهها، فرأي جمودا فـي نظرتهـا، وكانت تشخص إلى حيث الخيالات البعيدة. دقق بريبـة ثـم قال، مبعدا هاجس الخوف عن نفسه: "إنها الراية تخفق فوق مبنى المحكمة. لا شيء.؟"، ثم ضمها إليه بحنـان وشـوق للمضي والتوغل في الأشجار المتراصة. لم تتحرك. ضـمها إليه أكثر وشد عليها: "خائفة وأنا معك؟". لـم تجـب، لكـن ذاكرتها أعادت إلى وعيها الشطر الذي لم تـروه لـه مـن حلمها. ودت لو أنها لم تطرح عليه المغامرة. لقد استجاب لها وفاقها حماسا. تمنعت وقتها، وقالت له: "إنه مجـرد حلـم. "

لكنه أصر مندفعا: "سنحول الحلم حقيقـة. معـا سـنحققه. " ضحكت من حماسه، وجذبته من شعره: "مجنون.."، فرفعها من خصرها، طارحا جسده على السرير، وسواها فوقه، ثـم ماس على إليتيها الصلبتين مداعبا، وقال: "أنت تخبئـي بلـدا بأكمله!".

وقرصها. فركلت الهواء من ألم لذيذ.

***

في الجهة المقابلة للحديقة العامـة كانـت المحكمـة. كشافان ضخمان مسلطان عليها. خيالات الراية الخفاقة على سطحها تنفرش فوق الأسفلت، والبنايات المجاورة، وكشـك الجندي الحارس.

ضجر الجندي من الرواح والمجـئ بـين الأسـدين الحجرين عند المدخل. تعبت قدماه وأحس بالبرد الصحراوي الناشف يخترق عظامه. نقل بندقيته من كتفـه الأيمـن إلـى الأيسر، ثم توجه بخطوات حذائه الثقيل نحو الكشك الخشبي. جلس على المقعد الصغير داعيا الأشياء إليه. رآهـا تجـئ مخلفة أماكنها بصمت. قطط الليـل الشـاردة... دوريـات الشرطة الليلية... سكارى المدينة المتأخرون..فنانة الخمـارة

الأربعينية تؤوب إلى غرفتها برفقة شاب قال إنه يحبهـا... لحن رتيب حزين يتسرب من زقاق لا يرى... زوجته الثانية التي تنتظره إذ الليلة دورها معـه (تململ وشـتم وظيفـة الليل)... الأسدان الحجريان يغادران قاعدتهما، ويهبطان فوق الدرجات الرخامية العريضة. فرك عينيه، وأسر لنفسه أن لا أذي يصيب الحاكم والمحكمة والقانون إن هو أغفـي قلـيلاً، وإلا فإن السهر سيجعله يرى جدته الحاجة وداد، ابنة الشـيخ تيسير، تفتح قبرها لترقص عليه بسروالها القطني الطويل!

... فغفا.

***

كانا قد اختارا أرضا صغيرة بـين أجمـة أشـجار لا يصلها أيما ضوء. هكذا حلمت هي أن يكون الوضع. وعندما جلسا، على الأرض الرطبة، مسندين ظهريهما إلـى جـذع شجرة صنوبر قديمة، منعته من أن يفرش البطانية التي جلبها معه. "لا لزوم لها!"، قالت. ثم سحبته إليها وقد دست رأسـها في حضنه: "أحب ملمس الأرض وأوراق الشجر. ". لم يرد بشيء، وأخذت أصابعه الباردة تحرث شـعرها الأسـود ذا

الخصلات الناعمة الطويلة. تساءل: "أهذا جزء مـن حلمهـا الذي أردناه حقيقة؟".

طفق الدم في جسديهما يعود إلى سرعته العادية. تـدفآ ببعضهما وزادا من التصاق أطرافهما. رفعت ذراعيها نحوه، وأخذت وجهه بين أصابعها، فهبط إليها راشـفًا مـن فمهـا جرعة شبق متردد. قضمت شفته السفلى بأسنانها التي وهجها رضابهما، ثم حررتها لتنتقل إلى ذقنه..فعنقه... صعودا ثانية إلى أذنه لتهمس بها فحيحا بلا معنى. سرت في دمه شـرارة أشعلت بقية تردده فأحرقتها. ذابت الأشجار حولهما وانفلتـت أغصانها عاليا باتجاه القمر المختنق بالغيم. لم يعد للوجـود حدود خارج مدار الجسدين المتخففين من أثقال الثيـاب. لـم يعد لبرد ليل كانون أثره عليهما. كانا يهرسان بظهرهما ورق الأشجار المطقطق، وبتقلباتهما المتشنجة يمتزجـان بتربـة الأرض التي فاحت رائحتها الخضراء لتدخل فـي جلـدهما. قالت وهي تندغم مع كل عضلة في رجولته وقد طوقتها: "إنه حبيبي". وقال هو بينما يراها زبدا فائرا إذ سورته بسـاقيها: "إنها مغامرتي حتى الأبد. "

وبدأت الأرض تتصـدع تحتهـا، وتلفـظ براكينهـا المحبوسة.

غطي العرق جبينها بقطرات تلتمع، وهاجت وحـوش جسدها، وراحت تطلق من جوفها زئير الارتـواء الـذي لا يرتوي... فزرعت أظافرها في لحمه حتى الدم.

أطلقا، معا، صوتًا لا يشبه أي صوت.

عندها؛ أخذت الأرض تسـتعيد توازنهـا التـدريجي. والأغصان تهبط إلى أشجارها. والوجود يتحدد في كائناتـه العديدة. ودورة الدم إلى إيقاعها الرتيب.

هدأ. فانطرحا إلى جوار بعضهما، وشـرعا أعينهمـا النعسة المثقلة بالنوم إلى السماء المتلبدة بغيم ثقيل.

اقترب منهما وقع ثقيل!

تذكرت، فأدركت شطر حلمهـا الأخيـر، فاسـتدارت صوب الصوت القادم. رأتهما يقتربـان بجسـمين أبيضـين حجريين بطيئين. لم تتحرك، وتركت ظهرها العاري ملفوفًـا بذراع حبيبها النائم عشقًا. هذا لم تذكره له. هذا الشطر مـن حلمها أبقته في سرها، إذ هو المغامرة حتى الأبد. لقد قالهـا. أجل. هو قال هذا حين شلح عـن روحـه كـل التحفظـات

وترتيبات الكلام. "أنا مغامرته حتى الأبد". وها هما يقتربـان منهما كتلتين حجريتين هائلتين، ومن حلقهما الصادين يخرج ما يشبه الزئير المكتوم.

لم تغمض عينيها أبدا.

أبقتهما مفتوحتين حتى ترى إلى النهاية.

وها الجسدان الحجريان يصلان، ومنهما ينبعث دفء.

وها العاشقان العاريان يبردان..يبردان..والغيم يرسـل غيثه، فيبتل الـورق الجـاف، ويعجـن بالتربـة اللهفـى، وبالجسدين اللذين طفقا ينطمران.

انتهـــــاك

خرجت من مكتب البريد متعثرة بحيرتها، وبخيبة أملها التي أعلنت عن وجودها داخل المغلف الكبير، بني اللـون، إنما الفارغ..الفارغ إلا من رسالة قصيرة على ورقة صغيرة، وكتاب واحد وحيد. لم تتفوه بكلمـة. أبـدا. حتـى "شـكرا" الروتينية، المبتورة، المكتنزة بالمعاني المختلفة والتباين بـين المشاعر المتناقضة. (هل لاحظتم أن "شكرا" ككلمة، تعنـي اللعنة، أحيانًا، في الوقت الذي تحمل فيه إشارة العرفان؟)

أجل. حتى لفظة "شكرا" لم تتفوه بها. فقط: خرجت من مكتب البريد، كما قلت، تتعثر بالحيرة التي تسلقتها، وبالأمل الخائب الذي شل قـدرة النطـق عنـدها، - ربمـا رغبـة النطق..بالأصح -. هكذا خرجت: منكسـة الـرأس، ثابتـة النظرة على لا شيء. (كان الشارع خاويـا تمامـا إلا مـن عشرات السابلة، وأعداد من العربات لا تنتهي ، وصـفوف أشجار يانعة على رصيفين نظيفين معتنى ببلاطهمـا جيـدا، ويافطات ملونة فوق حوانيت تبيع كل شيء، وسماء كنسـت

طيورها واستراحت إلى جدبها التام الذي نقبتـه، وأخرجـت منه كل غيمة زؤان، أو سحابة سوس!)

إذن؛ كانت نظرتها ثابتة على لا شيء. علـى فـراغ شامل رغم السابلة، والعربـات، والأشـجار، والرصـيفين، واليافطات، والسماء. نعم، السماء التي نعرفها جميعا، والتي أطلقت عليها، الآن، هذا الوصف: (سقف مفضوح – فاضح).

رفعت رأسها إلى الأعلى، فكانت السماء.

رفعت رأسها إلى السقف النظيف، المنقى، وسألت بلا صوت:

"ماذا فوقك أيها الأزرق... كالدهان المغشوش؟!"

وبكت. ضغطت على المغلف الكبيـر، بنـي اللـون، ساكبة فيه حمى غضبتها الطفولية، ثم رمتـه هنـاك. هـي مواطنة صالحة تحافظ على نظافة مدينتها. رمته هناك. فـي وعاء القمامة البرتقالي اللون، المعلق على عمود الكهرباء. لم تمنحها "الأمانة" جائزة التقدير السنوية (هـل ثمـة جـائزة مخصصة لهذا؟)، وذلك لأن أحدا لم يرها تقوم بواجبها تجاه الوطن. بالتأكيد لم يرها أحد (هي المواطنـة الصـغيرة)؛ إذ كانت تسير وحدها، كأنما في حلم وسـط موسـيقى باكيـة،

تخطو على تبعجات كندف الثلج، بينما يطير شعرها الأسـود القصير في الأعالي (إنه يطير عاليا رغم قصـره)، ويـرف ثوبها الوردي الشفيف كأجنحة الملائكة (مع أنها كانت ترتدي بنطالاً أبيض بلون الحليب.)

لم يرها أحد، غير أنها رأت نفسها هكذا ورأت، أيضا، أن أمرا ناقصا لا تستطيع له تفسيرا. أن ثمة نقصا آخر، غير مفسر، ويعذبها، بالإضافة إلى النقص الذي أخلى للهواء حيزا داخل المغلف الكبير، بني اللون، المطقطـق – الآن – فـي وعاء القمامة.

أخرجت الرسالة القصيرة من الكتاب الوحيد – كـان كتابا باللغة الفرنسية-، وأعادت القراءة:

(عزيزتي: كل المحبة.

حبيبتي: كل الشوق.

أعمل هنا من أجلك. المغرب بلد جميل. حضن أليـف أتمناه لك. لنا. لا أعـرف أن أكتـب الرسـائل، وخاصـة العاطفية. أحبك. في طيه الكتب الأربعة التي طلبتهـا. أمـا الخامس فلقد نفدت طبعته العربية، فأرسلته لك بلغته الأصلية. أعرف بأنك لا تعرفين تلك اللغة. لكنه تذكار. أنتظـر ردك

متمنيا أن تستمتعي بالكتب، لأن ذلك سيكون علاقة التواصل والاتصال بيننا. سأتعلم أن أستمتع بالكتب مثلك، وها أنا أبدأ. مع شوقي ومحبتي.)

تلفتت للوراء، وكان لون الوعـاء البرتقـالي البعيـد باهتًا... باهتًا: فازدردت دمعتها واستغاثت بالسماء. قالت بلا صوت:

"ماذا فوقك أيها الأزرق..كالدهان المغشوش؟

ماذا تقول عن هذا النقص؟

من سرق الكتب؟..من قطع التواصل والاتصال؟.."

***

عندما تسلمت المغلف المفتوح من الموظـف، سـألته مندهشة:

- من فتحه؟

فرفع كفيه وأبقى على صمته.

وعندما فضت الرسالة، وسألته مندهشة، أيضا:

- من أخذ الكتب؟

رفع كتفيه، وهرش رأسه، وأشعل سـيجارة جديـدة، وأبقى – أيضا – على صمته.

حارت، وشعرت بالخيبة تتقطر في روحهـا، وسـألته منهزمة:

- لمن أشكو؟

لكنه – الموظف – كان قد استدار وابتعد في الزاوية، وراح يلعق صمغ الطوابع، ويلصقها على أكوام من المغلفات البنيـة اللـون، الكبيـرة، فتزدهـي بـالألوان الأنيقة..المسافرة..الطائرة..

نظرت الفتاة إليها.

نظرت الفتاة إلى مغلفها "المجعلك"، المنهك، المنتهـك، وعادت تراقب تلك المزدهية بألوان الطوابع الجديـدة. ثـم سألت – كعادتها – بلا صوت:

"هل ستصل بما تحويه؟"

وخرجت من مكتب البريد متعثرة بحيرتهـا، وبخيبـة أملها التي أعلنت عن وجودها داخل المغلف الكبيـر، بنـي اللون، إنما الفارغ...

الفارغ من كتب عربية أربعة كانت ستشـكل علاقـة تواصل واتصال استمتاعي مع حبيبها.

لكنها، الكتب الأربعة، لم تكن. لم تكن....

حُـلـــــــــــــــــم

عندما بدأت تغسل وجهها تبدد الحلم. تلاشى وضـاع مع خيوط الماء. ابتلعته بالوعة المغسلة.

وكان صباح.

لم تنتبه إلى عينيها. نظرت في المرآة بينمـا المشـط يسرح في شعرها. لكنها لم تر عينيها. كانت عيناها غائمتين. سحابة الحلم المتبدد لم تتبدد. ظل سحرها في بقعة ما فيها. لم يبرحها. تساءلت متعجبة: لماذا ضاع حلمي؟..ربما قالت هذا بالضبط. الكلمات ذاتها. وربما، بعد سنين، سـتقول الشـيء ذاتـه، إنمـا بكلمـات أخـري: "يناوشـني الحلـم وأبقـي الراكضة!"..مثلاً.

ضحكت لما رأت إلى لعبتها القديمة: كانت منكفئة على وجهها، إلى جانب الوسادة، وقد انكشف الثوب حتى ظهرهـا الشمعي، الزهري اللون.

لم تعرف لماذا ضحكت. لكنها ضحكت ولم يسـمعها أحد. سر ما لفتاة ما.

المدينة.

قبل أن تهبط إلى الشارع سمعت صوت أبيها. عرفت ماذا يقول، وكانت كلماته قـد وصـلتها مفككـة. جمعتهـا، وربطتها، وقرأتها سطرا قديما في كتاب قديم علـى صـفحة البياض اليومية.

ردت عليه وهي تخرج من المطبخ الملتمع الجدران:

"- لا تخف. لن أتأخر. "

هزت أمها رأسها دون أن ترفع وجهها عـن عينـي الرجل. بقي الأب يتكلم وبقيت هي تقرأ الفقرة التالية بينمـا انصفق الباب فغاب البيت.

"لم أقبل أحدا ولم يقبلني أحد!". كانـت تقـارن بـين خروجها وذاك الذي تشاهده في التليفزيون.

"تلك الأفلام الملونة. حلم. "

وسط ضجيج الملعب أنصتت للأخرى، زميلتها: "حلم جميل ورائع!".

استرعى انتباهها شعر الأخرى البني الغـامق. كـان يتراقص على كتفيها كلما تحدثت. وعرفت السـبب: كانـت

تهتز بكاملها كلما تحدثت. كان جسد الأخرى يتشـاجر مـع الكلام ويغلبه.

استرعى انتباهها شيء آخر. رائع. قالـت الأخـرى: "رائع". جديدة هذه الكلمة ومناسبة. حدثت نفسـها الآن لمـا تذكرتها. وعبرت الأسفلت العريض إلى الرصيف المقابل.

قالت معلمة الرياضة:

"- لم تلعبي منذ وقت طويل. "

ظلت صامتة.

"- أين المشاركة؟.."

"- أفضل أن أتفرج. "

"- هيا. "، صرخت المعلمة في جوف القاعة الكبيـرة المغلقة. "تابعوا اللعب". وتقـافزت علـى أرضـية المكـان الإسمنتية. كان لصوتها صدى مكتوم. وكان لصوت الكـرة البرتقالية المخططة بالأسود الصدى ذاته، وهي تتطاير فـوق الشبكة المهتزة بين الفريقين. بقيت النظرة المتأنيـة معلقـة. نظرة المعلمة بالبنطلون الرياضي الفضـفاض. اسـتدركت أصابعها تنفرش على صدرها النامي. كأنما هي تحميه. أهي نظرة المعلمة إليه؟..

ونسيت الموضوع. وكان ثمة زمـن وأشـياء تعبـر وتمضي.

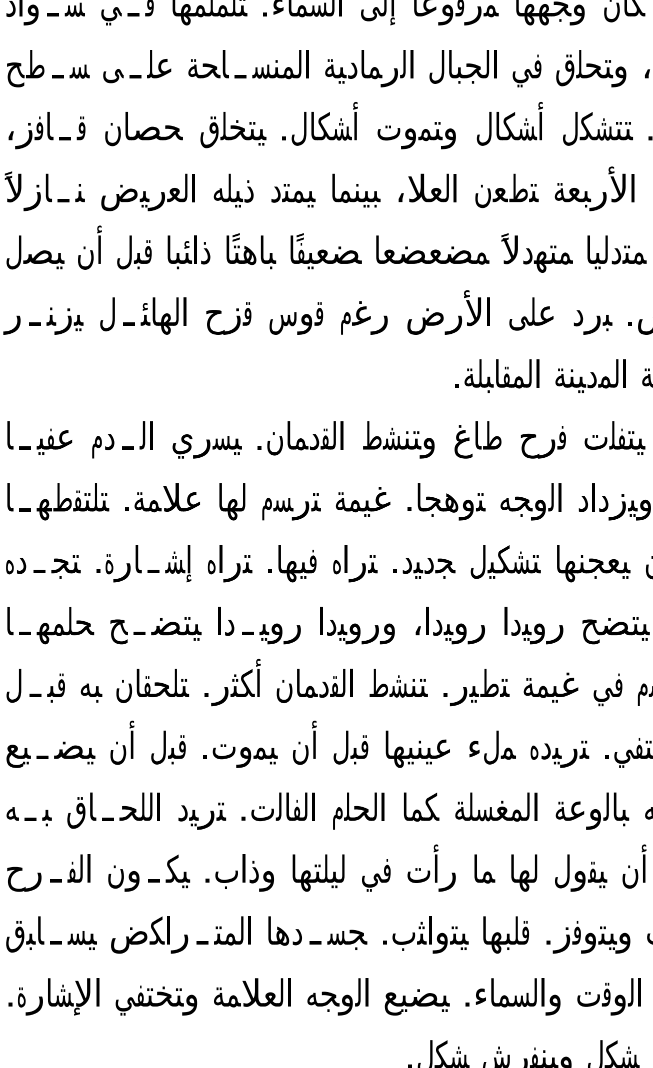
تذكرت: "صحيح. لماذا أحضن الحقيبة إلى صدري!"

لم تدر كيف تجيب على سؤال أبيها في البيت. عرفت أن أمها أتت بشيء فسكت الرجل. لم تعرف ما الذي أتت به أمها لأنها كانت تنظر إلى النافذة في الجدار الآخر.

لكنها تذكرت، أيضا: "كلهن يفعلن هذا. "

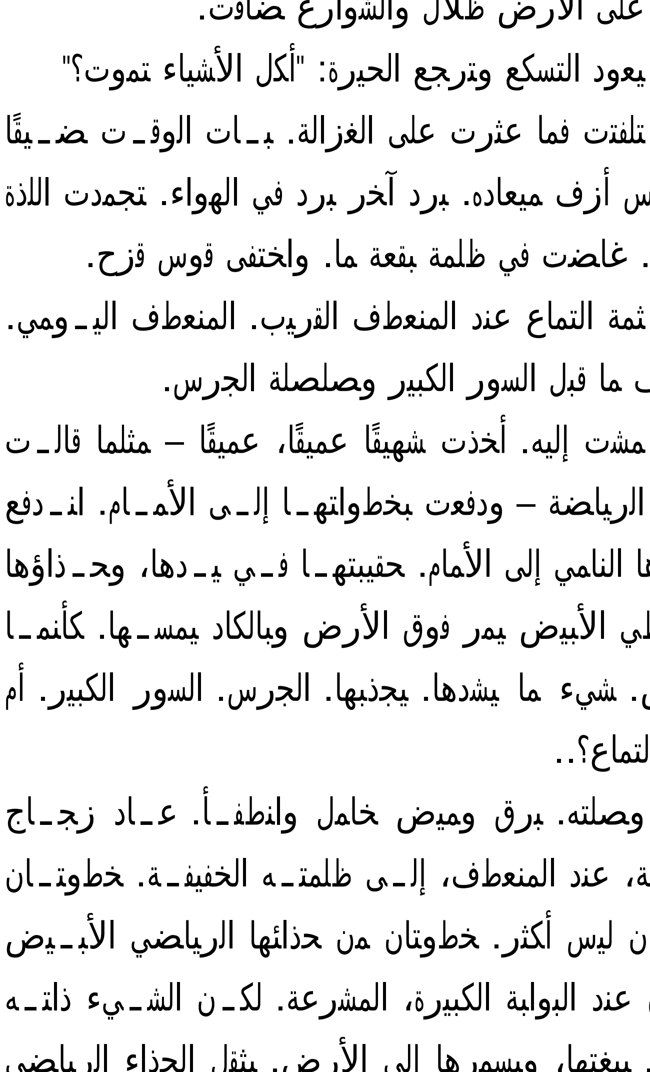
المدينة.

صباح فقدت فيه حلمها الطازج. هـذا جديـد. لكنـه، أيضا، صباح كما الصباح دائما: شوارع تفـرد مسـاحاتها. تتشعب. عريضة. متواربة بين البنايـات. متواريـة خلـف البنايات. وثمة محلات لما تشهر زجاج واجهاتهـا. تمشـي والوقت يتسع لتسكعها. الوقت غزالة فرت من الناس واحتمت برفقتها. تتسكع. لذة غامضة تولد وتدخلها. لذة أليفـة تنبـت وتسري فيها. الوجه يتوهج والعينان نصف مغلقتين. بعـض من البرد الليلي عالق في الهواء: تلتذ به. بعـض مـن دفء المنزل ينام في طيات الملابس الثقيلة قلـيلاً: تـأنس إليـه. وشمس تغالب غيوم تشرين وتغمز لها.



كان وجهها مرفوعا إلى السماء. تلملمها في سواد عينيها، وتحلق في الجبال الرمادية المنساحة على سطح المدى. تتشكل أشكال وتموت أشكال. يتخلق حصان قافز، قوائمه الأربعة تطعن العلا، بينما يمتد ذيله العريض نازلاً هابطًا متدليا متهدلاً مضعضعا ضعيفًا باهتًا ذائبا قبل أن يصل الأرض. برد على الأرض رغم قوس قزح الهائل يزنر ضاحية المدينة المقابلة.

يتفلت فرح طاغ وتنشط القدمان. يسري الدم عفيا عنيفًا ويزداد الوجه توهجا. غيمة ترسم لها علامة. تلتقطها قبل أن يعجنها تشكيل جديد. تراه فيها. تراه إشارة. تجده وجها يتضح رويدا رويدا، ورويدا رويدا يتضح حلمها ويتجسم في غيمة تطير. تنشط القدمان أكثر. تلحقان به قبل أن يختفي. تريده ملء عينيها قبل أن يموت. قبل أن يضيع وتبتلعه بالوعة المغسلة كما الحلم الفالت. تريد اللحاق به عسى أن يقول لها ما رأت في ليلتها وذاب. يكون الفرح يتواثب ويتوفز. قلبها يتواثب. جسدها المتراكض يسابق غزالة الوقت والسماء. يضيع الوجه العلامة وتختفي الإشارة. يتشكل شكل وينفرش شكل.



على الأرض ظلال والشوارع ضاقت.

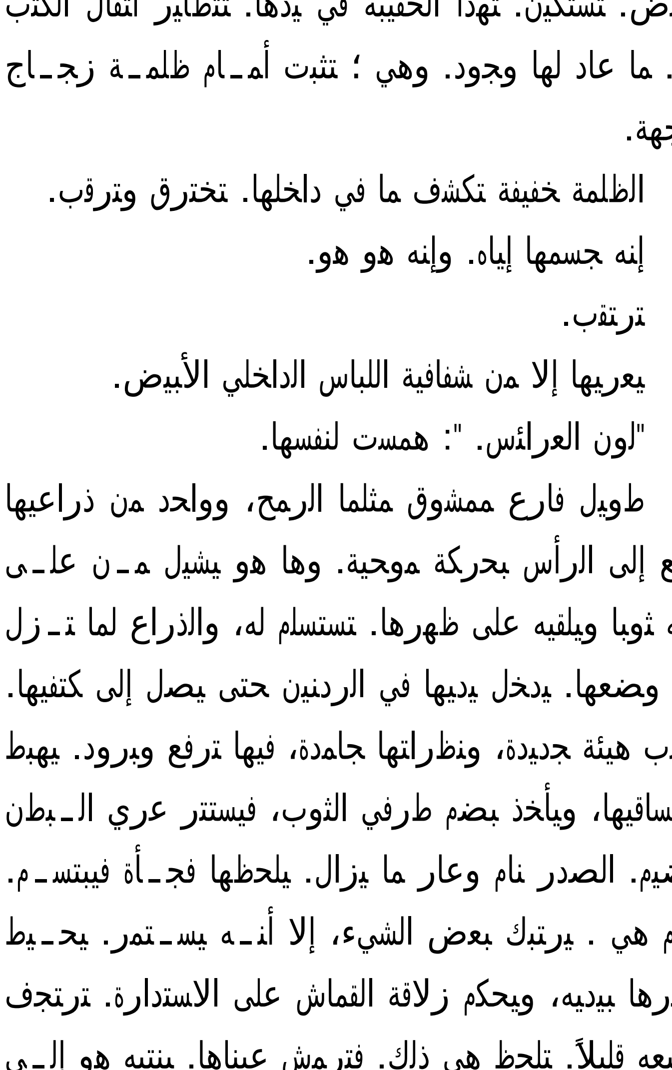
يعود التسكع وترجع الحيرة: "أكل الأشياء تموت؟"

تلفتت فما عثرت على الغزالة. بات الوقت ضيقًا والجرس أزف ميعاده. برد آخر برد في الهواء. تجمدت اللذة الوليدة. غاضت في ظلمة بقعة ما. واختفى قوس قزح.

ثمة التماع عند المنعطف القريب. المنعطف اليومي. منعطف ما قبل السور الكبير وصلصلة الجرس.

مشت إليه. أخذت شهيقًا عميقًا، عميقًا – مثلما قالت معلمة الرياضة – ودفعت بخطواتها إلى الأمام. اندفع صدرها النامي إلى الأمام. حقيبتها في يدها، وحذاؤها المطاطي الأبيض يمر فوق الأرض وبالكاد يمسها. كأنما تركض. شيء ما يشدها. يجذبها. الجرس. السور الكبير. أم هو الالتماع؟..

وصلته. برق وميض خامل وانطفأ. عاد زجاج الواجهة، عند المنعطف، إلى ظلمته الخفيفة. خطوتان طائرتان ليس أكثر. خطوتان من حذائها الرياضي الأبيض وتكون عند البوابة الكبيرة، المشرعة. لكن الشيء ذاته يوقفها. يبغتها، ويسمرها إلى الأرض. يثقل الحذاء الرياضي



ويربض. تستكين. تهدأ الحقيبة في يدها. تتطاير أثقال الكتب منها. ما عاد لها وجود. وهي ؛ تثبت أمـام ظلمـة زجـاج الواجهة.

الظلمة خفيفة تكشف ما في داخلها. تخترق وترقب.

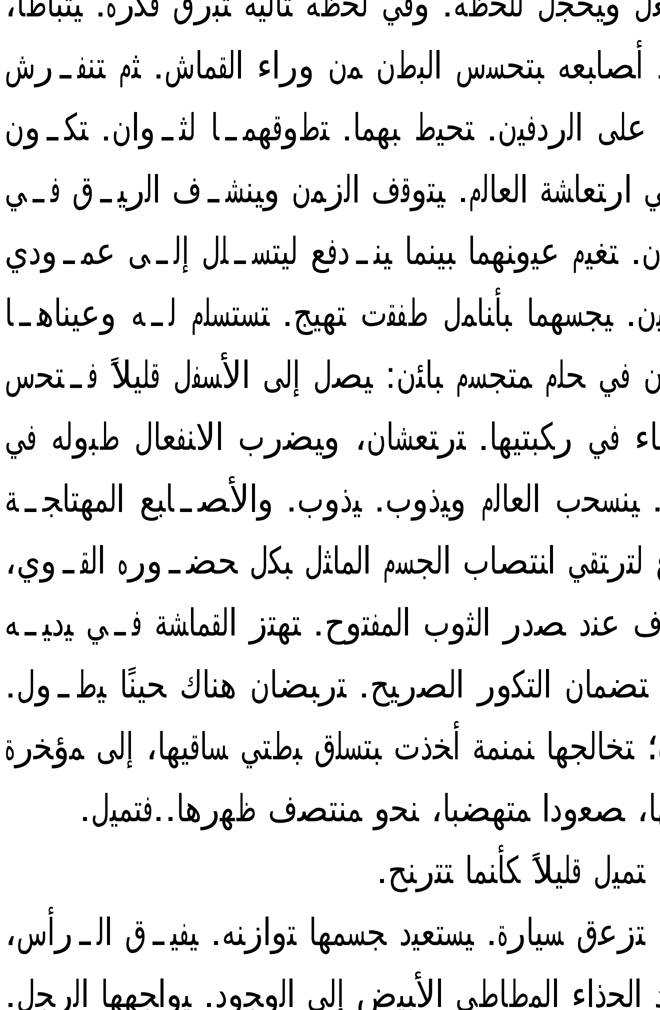
إنه جسمها إياه. وإنه هو هو.

ترتقب.

يعريها إلا من شفافية اللباس الداخلي الأبيض.

"لون العرائس. ": همست لنفسها.

طويل فارع ممشوق مثلما الرمح، وواحد من ذراعيها يرتفع إلى الرأس بحركة موحية. وها هو يشيل مـن علـى كتفيه ثوبا ويلقيه على ظهرها. تستسلم له، والذراع لما تـزل على وضعها. يدخل يديها في الردنين حتى يصل إلى كتفيها. تكتسب هيئة جديدة، ونظراتها جامدة، فيها ترفع وبرود. يهبط إلى ساقيها، ويأخذ بضم طرفي الثوب، فيستتر عري الـبطن الهضيم. الصدر نام وعار ما يزال. يلحظها فجـأة فيبتسـم. تبتسم هي . يرتبك بعض الشيء، إلا أنـه يسـتمر. يحـيط خصرها بيديه، ويحكم زلاقة القماش على الاستدارة. ترتجف أصابعه قليلاً. تلحظ هي ذلك. فترمش عيناها. ينتبه هو إلـى



ما يفعل ويخجل للحظة. وفي لحظة تالية تبرق فكرة. يتباطأ، وتأخذ أصابعه بتحسس البطن من وراء القماش. ثم تتفرش بعدها على الردفين. تحيط بهما. تطوقهما لثوان. تكون الثواني ارتعاشة العالم. يتوقف الزمن وينشف الريق في الحلقين. تغيم عيونهما بينما يندفع ليتسلل إلى عمودي الفخذين. يجسهما بأنامل طفقت تهيج. تستسلم له وعيناها تحدقان في حلم متجسم بائن: يصل إلى الأسفل قليلاً فتحس بارتخاء في ركبتيها. ترتعشان، ويضرب الانفعال طبوله في رأسه. ينسحب العالم ويذوب. يذوب. والأصابع المهتاجة تسرع لترتقي انتصاب الجسم الماثل بكل حضوره القوي، وتتوقف عند صدر الثوب المفتوح. تهتز القماشة في يديه اللتين تضمان التكور الصريح. تربضان هناك حينًا يطول. وفجأة؛ تخالجها نمنمة أخذت بتسلق بطتي ساقيها، إلى مؤخرة فخذيها، صعودا متهضبا، نحو منتصف ظهرها..فتميل.

تميل قليلاً كأنما تترنح.

تزعق سيارة. يستعيد جسمها توازنه. يفيق الرأس، ويعود الحذاء المطاطي الأبيض إلى الوجود. يواجهها الرجل. يكون شابا، ويكون الخجل الأحمر في وجهه متواطئًا مع

عري جسم العارضة الشمعي في الواجهة، وتهرب أصـابعه ارتعاشاتها في شعر رأسه.

يبتسم وجهه الحليق. تبتسم هي . وفجأة تعبس. يتكدر هو. يقف إلى جانب العارضة نصف العارية حائرا. ينظـر إليها. يراها تشخص إليه بعينين مشرعتين مشرعتين. يـرى كتفيها محنيين على الحقيبة المدرسية، وقـد ضـمتها إلـى صدرها بذراعين متوترين.

يصلصل الجرس، فتري غزالة الوقت قد سبقتها إلـى داخل السور الكبير. ترتبك قليلاً. تتحرك في مكانها. تخطف منه وجهه..وتركض. تركض طائرة بحذائين مجنحين تكاد لا تمس الأرض، وتختفـي وراء المنعطـف. ذاك المنعطـف اليومي الذي يؤدي بها إلى بوابة السور الكبير.

وصلته.

السور الكبير.

خففت من سرعتها.

تذكرت: "هذا وجهه. أجل. هو الذي ذاب مع الماء هذا الصباح!"

والتفتت إلى الوراء، كالخطف، قبل أن تلج ضوضـاء الأصوات الكثيرة.

دم

يهبط المنحدرات الصغيرة خفيفًا، كأنمـا يتـراكض، كأنما يرقص، ثم يستوي واقفًا تحت شمس لم تحترق بعد.

يكون صباح.

يصعد ضباب كالطيف من وجه الغمر. يسيل رائقًـا. نظيفًا. ويكون بوسعه أن يـرى الأسـماك الصـغيرة تشـع كالزئبق أو كالفضة. يتبينها عند السطح مثل فراشات تتخفى. يضحك في أعماقه لسبب لا يدرك عمقه. يفرح. ويقصد باب المقهى. ذاك الكائن في آخر الزقاق. ذاك المركـون خلفـه عتمة أسْمَك من أن يفتتها نور نائس. ويـدلف إليـه حيـث الصبي يكنس مخلفات الليل.

"- الشاي (الدوبل)".

ويدندن لحنًا صباحيا.

***

لم يعرفه أحد باسم كامل.

مجرد لقب: يا عضل. فيستجيب دون إبطـاء. علـى الفور. مستعد للنهوض والتلبية حالما يسمع النداء. يفور الدم في وجهه وتبرق عيناه – مازال ماء الشمس في حدقتيه!

هو يعرف المكان. أليس عمله؟

من السيل. من المقهى المركون على رصيف السـيل، بمائه الصافي، يصعد نظره ويصعد. يجتاز المـاء السـهل. يرتقي المرتفع متواثبا. يحاذي المدرسة المؤلفة من غـرفتين وسيدة وحيدة. لا يكون صخب الصغار قـد دب. خطـوات؛ وها اسفلت الشارع النظيف هادئ كالنوم. تعبق رائحة نـدى الصنوبر القوية.

المستشفى الإيطالي.

حدائق تصعد وتصعد بـانحراف حتـى تقـف عنـد المدخل. – كان فيها غزالان للطبيب العجوز -. كان. يـدفع الباب الحديدي الأسود الثقيل، ويخطو باتجاه الغرفة إياها.

"- مستعد؟"، يقول الممرض الأربعيني ذو المعطـف الأبيض.

"- دائما. " يرد، ويثني ساعده فيتكور عضل الـذراع رائعا يكاد يمزق القميص. لا ينتظر تعليمات أخرى. يعطي

ظهره للسرير، ويستلقي فاردا ذراعه لأصـابع الممـرض، وللفافة ضغط الأوردة.

"- كم لترا؟"، يسأل بصوت به بعض جفاف.

- كالعادة.

- خذ ما تشاء.

***

في مرة قديمة، سأله أحد المثابرين على المقهى:

- وكم يعطونك؟

- ورقة حمراء وكوب حليب.

- هل يكفي؟

- يسترها ربك.

- لكن الحليب لا يكفي.

- يقولون أن أكل الكبدة والطحال.

- لكنك زبون الفلافل والفول.

- هل سنكسب كل الدنيا؟

وطلعت ضحكته الخشنة لتضيف إلـى لغـط المكـان صوتًا جديدا. وإلي سحب السجائر المهربة والحشيش الردئ آهة ما لبثت أن ضاعت.

***

مضت سنون، وكان يوم:

احترقت الشمس ولم يأت "عضل".

بعثوا يطلبونه خمس مرات. لا. لم يأت.

جاء الممرض الأربعيني – صار في الخمسـين – ذو المعطف الأبيض نفسه. ولم يكن "عضل" قد جاء أيضا.

سأل: "هل من يعرف بيته؟"

وما كان أحد في المقهى يعرف.

احترقت الشمس أكثر.

***

في الليل سهرت بعض الرؤوس المنكبة على طاولـة متآكلة. خيالاتهم تتراقص على حائط المقهى الأخضر اللون. يلمع دهان الزيت بفعل إنارة اللمبة الوحيـدة. تلمـع عيـون منطفئة. تدور الرؤوس في دخان الشيء الرخيص. تتلـوى الحوريات في تجاويف المقاعد. يترنح صوت مخنث بأغنيـة عن ليال بلا نهارات.

والوقت يسري مع الأنفاس المتقطعة ويعبرها.

يتهدم الصمت ويشمخ الخوف. تنتفض بعض الرؤوس على بعض يقظة. يتلعثم لسان ثقيل:

- الشرطة!

- اخرس! يهمس صاحب المكان.

ويدخل، بعد لحظات، صبي المقهـى الجديـد، مـبللاً وبارقًا كأنه طلع لتوه من السيل. – لابد من صبي لكل مقهى .-

- سقط الإبريق من يدي فانكسر الفخار"، قال مرتبكًا.

- عكروت ابن عكروت"، صاح أحدهم: "لقد أخفتنا.

- أنت العكروت وحشاش. رد الصبي وهـو يمسـح الماء عن زنديه وصدره المكشوف المبلل.

- لسانك طويل ينبغي قصه.

- لو كان عضل هنا لما قلت هذا.

خرج الرأس من دورة الشيء الـرخيص: "عضـلك بالون هواء لا يساوي قرشًا. "

- أنت لا تساوي قرشًا.

- ولد!

ونظر صوب صاحب المقهى كاشفًا عن أسنان بلـون الحناء: "دعني أفعلها معه فوق هذه الطاولة!"

ثم اتقدت عيناه في وجه الصبي.

فقال صاحب المكان بنبرة مساومة:

- الصبي غال. كم تدفع؟

- عمري، ولهث.

فصخب الرجل: "حقًا أنك الحشاش!".

عاد الصوت المخنث ليغني عن أنين وأنين.

***

اليوم التالي:

احترقت الشمس، ففر الناس إلى الظل يحتمـون بـه. أخليت الشوارع إلا للضرورة. تعرت السماء فبـان لونهـا الأبيض المشرب بالزرقة الباهتـة. وطفقـت الأرض تلفـظ صهدها إلى أعلى.

سكون ثقيل. صخور في الصدور لا تتفتت. ظمأ إلـى شراب لم يوجد. سيل جف فغادرته الضفادع متيبسة. ومذياع يقول أخبارا لا تهم أحدا.

وظهرت النقاط تتذبذب في البعيد. هناك في أعلى المرتفع المشرف على السيل. نقاط داكنة تتحرك ببطء الشمس المحترقة. انحرفت قليلاً باتجاه الجسر وبدأت تتضح. أربعة رجال يحملون صندوقًا.

إنه نعش!

رمش الصبي وتقدم خطوة.

اقترب الموكب أكثر. شخصان آخران. رجل بمعطف أبيض. وامرأة عجوز تجرجر ظلها الأسود. ثوبها أسود. هبطوا نحو السيل الذي جف. لا أحد معهم والأمكنة خالية إلا من الصهد المتطاير.

تقدم الصبي خطوة أخرى.

قال شيئًا، فخرج الرواد واجمين.

صار الموكب على مرمى البصر. تحت الرصيف العالي. يدب فوق أحجار السيل المفلطحة الناعمة. ولا صوت سوى صدى الخطوات.

أطلت بعض الرؤوس من ظلالها المخبأ.

قال أحدهم: "يرحمه ا "، فسرت بسملة، كالهمس، للحظة، واختنقت.

نظر الرجل الخمسيني، ذو المعطف الأبـيض، نحـو صبي المقهي، ثم غض بصره وواصل المسير. لكن حشرجة تفلتت من حلق يزدرد البكاء، وانطلقت بسؤال:

- ماذا كان اسمه؟..

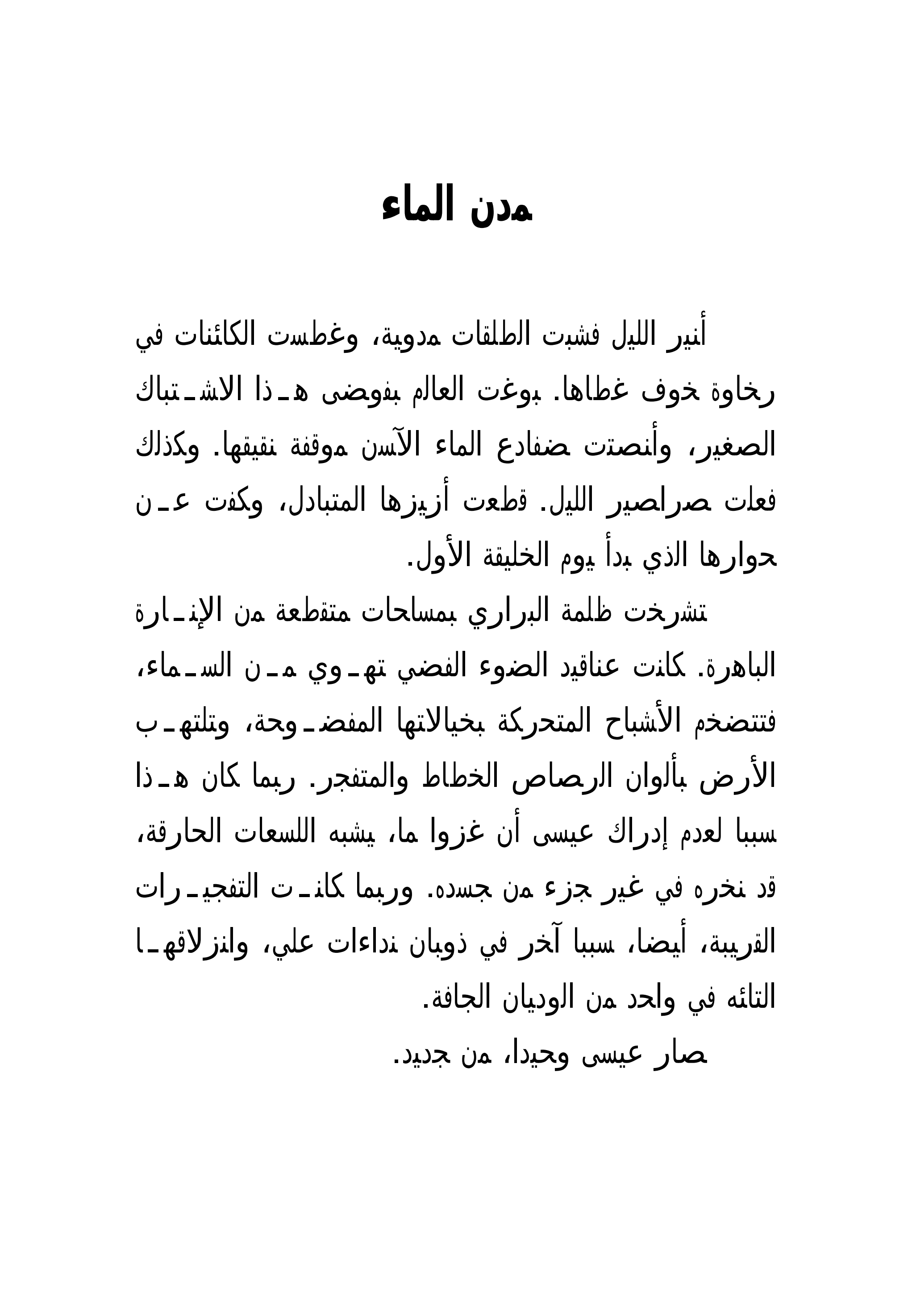
وعندما لم يلق جوابا من الموكب المتعثر على حجارة السيل، انكفأ على جدار المقهـى، وأرسـل للسـماء كلامـا كالدعاء.

عندها، احمرت الشمس تماما، احترقت، وهطل مطـر كالدم!.

القسم الثاني

مدن الماء

الأكتاف



مدن الماء

أنير الليل فشبت الطلقات مدوية، وغطست الكائنات في رخاوة خوف غطاها. بوغت العالم بفوضى هـذا الاشـتباك الصغير، وأنصتت ضفادع الماء الآسن موقفة نقيقها. وكذلك فعلت صراصير الليل. قطعت أزيزها المتبادل، وكفت عـن حوارها الذي بدأ يوم الخليقة الأول.

تشرخت ظلمة البراري بمساحات متقطعة من الإنـارة الباهرة. كانت عناقيد الضوء الفضي تهـوي مـن السـماء، فتتضخم الأشباح المتحركة بخيالاتها المفضـوحة، وتلتهـب الأرض بألوان الرصاص الخطاط والمتفجر. ربما كان هـذا سببا لعدم إدراك عيسى أن غزوا ما، يشبه اللسعات الحارقة، قد نخره في غير جزء من جسده. وربما كانـت التفجيـرات القريبة، أيضا، سببا آخر في ذوبان نداءات علي، وانزلاقهـا التائه في واحد من الوديان الجافة.

صار عيسى وحيدا، من جديد.

وحيدا، وفي اللحظات الأولى لمرحلـة دخولـه، بـلا وزن، إلى الغيمة التي تحركت به. لقد سمح القمر الذي تشوه وجهه بنثار داكن من الغيوم العابرة، لواحدة أن تنفصل عنه. ترك لها أمر نزولها إلى ذلك الكائن المسمى عيسى. الكـائن المرمي على خاصرة صخرة كأنمـا هـو امتـدادها، لكنـه المتحرك في زمن نأمة لا تحسب. هي النأمة حيث صار فيها كل شيء لا شيء. نأمة موت التردد..وانخساف الخـوف... وانعدام الوزن... وهبوب رائحة البيت البعيد..وأنفاس الأهل النائمين..وحسية الحبيبة المباغتة. هي نأمة كل هذا. وهي ، بسبب خرافة الإنسان وعجينته الطينية، نأمة الـدخول فـي تراب الأرض (ها عيسى يتذكر)، والركوع المتأهـب فـوق أسانة الماء الضحل.

كانت العيون قد ناست وأسلمت أمنها لنوبات الحراسة.

نامت الأرض إثر كد نهار طويل. تراخـى الرجـال لسحر خيالات الأشياء المتعملقة، بينما تأرجحت، من فوقهم، مصابيح البترول المعلقة. سقوف الخيام الهابطة ترتج، ومـن الأسفل تنسرب هبات متلاحقة تنفخ في التراب، وتبعث مـن خشب الأعمدة أنينه الخبئ.

ناست العيون مسلمة أمنها لنوبات الحراسة.

صمت.

ليس من صـوت (قبـل دوي الطلقـات) إلا حـديث صراصير الليل المتبادل. حديث لم يبدأ يومه الخليقة لينتهي ، الآن، أو يكف عند الخطى المحـاذرة، المنسـلة، المتقدمـة، المقتربة من منطقة الحصي المفاطح الذي لحسـته رقرقـات الماء ولحسته حتى رق وجهه، وصار مثـل بـيض الـرخ. تداخلات لغة البيض المداس بنقيق الضفادع غيـر المرئيـة. طشيش وشبه تعثر، ثم برودة الماء الراكـد الـذي ولجتـه الخطى الحذرة. تراءت، في الجهة المقابلة، رؤوس القصـب المازعة لطبقة العتمة، وقد أضاءتها المياه النائمة في فضـة القمر.

أشار شبح على بذراعه، فانحنى عيسى وانحنى حتـى غاصت ركبتاه بين زلاقة طمي الضفة، وقسـاوة الحصـى المفاطح. كان متأهبا مشدودا مثل وتر. أبصر صاحبه يتريث وسط الماء. حدس بأنه يتلقط أي صـوت يخبـئ شـرا. لا صوت سوى معزوفة النقيق الضفدعي، وحوار الصراصـير الموزع على امتداد البرية. بقيا هكذا حتـى سـمع عيسـى

ضربات قلبه تدق صدره، وأصابعه ترخي، قليلاً قليلاً، مـن قبضتها على جسم بندقيته المعدني البارد. أحس ببرودة الماء تسري فيه، وبنوع من الخدر الذي يتفشى في الدم (حنق على نفسه متفكرا: ليس هذا وقته) ساحبا المرء صوب النوم... أو الذكرى.

(لماذا لا يكون الوقت للحب وحده؟

لماذا لا يكون لنا؟ كله لنا، يا مريم؟

العالم عذاب كبير لا أفهمه. كتبت لـك هـذا. وعلـي يتعذب. أراه يتعذب من ألم في داخلـه ولا أعـرف كيـف أريحه. أقول له بأن الأمر أكبر من أن نقدر نحن على حله. لكنه يظل صامتًا. أحاول تسليته بالحديث عن حماقات زملائنا من الجنود. عن المستقبل الذي ينتظرنا بعد انتهاء الخدمـة. عن زواجنا. كيف قلت لي بأن السنتين ستمران تحت حذائك. يهز رأسه ويدير لي ظهره، ويقول: لك مريمك ولي مريمي. وبعد العشاء تمشيت معه في باحة المعسكر. بقينا صـامتين إلى أن نطق وقال بأن هذا وقت الموت! خفت منـه وخفـت عليه. سألته ماذا تعني؟ وسألني إذا كنت سأساعده. قلت لـه بأني صديقه، ولسوف أقدم له ما يحتاجه صديق عزيز مثله.

كنت أعرف بأن هذا سيريحه ولو قليلاً. طلب مني أن أقسم على ذلك، فأقسمت أيضا على حفظ سره الذي وعدني بالبوح به فيما بعد.

مريم.

أريد أن أستريح وأن أضع وجهي في كفك. أريد أن أنام.

انتظريني.).

"هل نمت؟!"

صحا على انسلال سؤال صاحبه يجيئ من الجهة المقابلة. دقق نظره، غير أنه لم ير تجسيما له في تشابك الأجسام الكامدة على الضفة الأخرى. انتظر ردحا من الدقائق دون أن يصدر صوت بشري يؤكد له خطواته التالية. حار ماذا يفعل. هل يظل على هذا الوضع بانتظار إشارة من علي؟ أم يقدم على عبور الماء والالتحاق به؟ غير أنه تذكر تحذيرات علي: "لكل خطوة حسابها..". إذن؛ عليه أن يبقى حيث هو. عليه أن يصمد متحملاً انهصاره بين الاحتمال الأكيد القابع في بطون الجهة المقابلة، والآخر الذي سينال منه عند الخطوط التي اجتازها الآن. لأنه اجتازها. ولأنه

مازال في وضع الاستعداد لاجتياز غيرها. لحظتئذ، نبت في رأسه سؤال باغته: "أهذا جنون؟"، وكان قد حركه بريبة القط المتحفز، وفكر فيه للحظة لم تكن عابرة بلا أثـر: "اجتيـاز الخطوط جنون!". لقد أرجعه السؤال إلـى بـدء التعليمـات وأسس القواعد:

"ونذكركم: ها نحـن نـذكركم: البطـولات الفرديـة مرفوضة. البطولات الفردية مخالفة للانضباط والنظام. مـن يرتكب حماقة فردية ينل أشد العقاب. مفهوم؟... ".

كان ضابط الفصيل قد زعق بسؤاله الأخير وهو ينقل خطواته أمامهم. ولما لم يجبه أحد وهم في وضع (اسـترح)، زعق ثانية بحيث التمع وجهه الحليق:

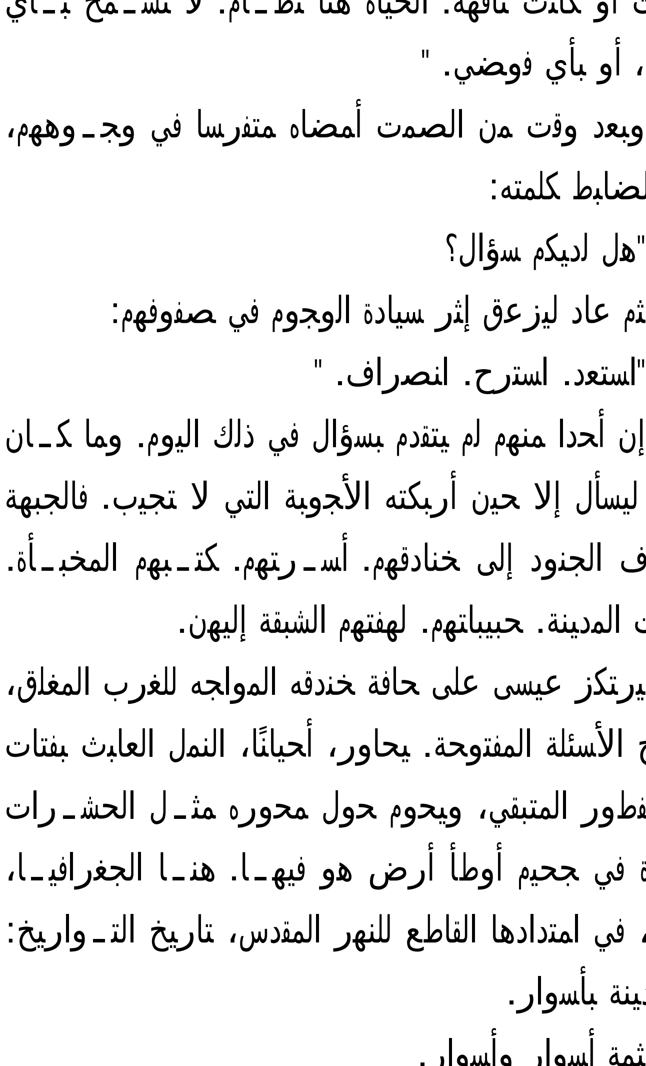
"مفهوم؟"

فهدر الجميع بصوت أرعش في عيسى شعر بدنه:

"مفهوم، سيدي. "

أضاف ضابطهم مصوبا نظراته نحو عيونهم الثابتة:

"نحن نعرفكم جيدا. كل شيء فـي وقتـه المناسـب. مكانكم هنا حتى تصلكم أوامـر أخـرى. الانضـباط سـر الجيوش في كسب المعارك. لن نتهاون حيال أي مخالفة مهما



صغرت أو كانت تافهة. الحياة هنا نظـام. لا نسـمح بـأي اختلال، أو بأي فوضى. "

وبعد وقت من الصمت أمضاه متفرسا في وجـوههم، أنهى الضابط كلمته:

"هل لديكم سؤال؟

ثم عاد ليزعق إثر سيادة الوجوم في صفوفهم:

"استعد. استرح. انصراف. "

إن أحدا منهم لم يتقدم بسؤال في ذلك اليوم. وما كـان عيسى ليسأل إلا حين أربكته الأجوبة التي لا تجيب. فالجبهة انصراف الجنود إلى خنادقهم. أسـرتهم. كتـبهم المخبـأة. ذكريات المدينة. حبيباتهم. لهفتهم الشبقة إليهن.

يرتكز عيسى على حافة خندقه المواجه للغرب المغلق، ويطرح الأسئلة المفتوحة. يحاور، أحيانًا، النمل العابث بفتات خبز الفطور المتبقي، ويحوم حول محوره مثـل الحشـرات الطائرة في جحيم أوطأ أرض هو فيهـا. هنـا الجغرافيـا، وهناك، في امتدادها القاطع للنهر المقدس، تاريخ التـواريخ: أقدم مدينة بأسوار.

ثمة أسوار وأسوار.

ينحبس الهواء في الطبقات العليـا؛ فيشـرع عيسـى صدره العاري متحسسا رقبته. يجول بعينيه راقات السـراب المتماوجة حواليه: سراب. أخيلة تتمرأى الأسوار بين طياتها وتقترب حد الاشتباك. يفر من المواجهة الكاذبة، ويلجأ إلـى الذاكرة. تسعفه، وتمنحه بعضا مما تخزنه له مـن كلمـات. يتجرعها كآخر قطرة في قعر جعبة المـاء خاكيـة اللـون. يتحشرج. يتحشرج بالكلمات؛ إذ ما عاد قادرا على التفريـق بين كلمات يعشقها عشقه لحبيبته هناك، وكلمـات يبغضـها بغضه لحذائه العسكري الثقيل. يخلع خوذته معريـا رأسـه الفائر، ويستريح طافيا على راقات السراب. تستدرجه الأخيلة وتنزع عنه درع السلاح. يصـير ولـدا يـركض بقدميـه عاريتين..حرتين. يسمع نداء أمه الغاضب منادية باسمه..

(أحمد ا على رزقي بهذا الولد الذكر، وأشكره شكرا كثيرا.

ماذا ستسميه؟

عيسى.

بوركت أسماء المرسلين.)

..ثم يصير يافعا يتشمم عطر حبيبته ويصـير، فـي اللحظة، عاشقًا يمزج بينها والقصيدة التي يرددها دائما:

"لم نعتمر خوذة للرصاص الذي فاجأ الأرض

أو قد يفاجئها،"

فتكمل هي :

"إنها مدن الماء ما نبتغي.

فاعتذر لحظة لخطاك،

اعتذر للبساتين،

أو للفتاة التي خاصمتك،"...

وتغرق في موجة ضحك طفولي يهزها (يذكر عيسـى بأنهما لم يتشاجرا سوى مرة واحدة كسبت هي اعتذاره فـي النهاية)، ويجئ علي بصوته المجبول بالحزن ليستكمل:

"لأصحابنا المتعبين.

فما أصعب الحلم إذ يستحيل بلادا

وخوفي من الشعر أن يسلم القلب

للوهم أو دوحة الوادعين"*

---

* المقاطع من قصيدة للشاعر زكريا محمد.

كانت الغيمة جاثمة عليه بكثافتها الشفيفة. وكان السكون يرفرف بأجنحته الرقيقة، وينسل خبيئًا في دمه المتباطئ بين القلب..والأطراف... والرأس الذي استقبله صدر الصخرة. فتات زمن النأمة يرفرف خارج صلادة الأشياء، ويذهب به إلى الحبيبة التي أودعت يدها في كفه. فكر وقتها: "وديعة كحمامة دافئة". ونظر إليها يريد أن يقول شيئًا. لكنه، حين استدار تماما وواجهها، وجدها خافضة الرأس وقد أسلبت عينيها. التقط مشهدها المذهل وأشاح صوب البعيد: الشمس مشرقة هناك. عاد إليها ورأى: الشمس غاربة هنا. مد أصابعه الحرة يتلمسها قبل أن تغيب: مد أصابعه إلى وجنتيها المشربتين بدم الغسق.

إن أحدا – سوى الغيمة المترهلة – لم ير دموعه التي انحدرت على عظمتي خديه. ولذا؛ فإن أحدا لن يسأل فيما إذا كان عيسى قد بكي موته المبكر. أم أنه نزف خسارات لذة الحبيبة التي استدرجته، ذات يوم، إلى أن يعصر في قبضته حفنة تراب مالح. عصره بالشوق المحترق، فما تقطر منه الذي يشفي الغليل. لقد بكي يومها: دمعتان حارتان خدرتا فيه انتباه الجندي في نوبة حراسته، وأرجعته إلى المشهد ثانية:

كانت قد أودعت يدها في كفه.

ضغط عليها أولاً، ثم أخذ يمرر أصابعه في باطن كفها الطري. أسلمت يدها لمشيئته وأغمضت عينيها. رآها تفعـل هذا وتنطوي، بحذر خجول، مقتربة حد التلاصق. اصـطدما على شفرة النشوة التي حزت القلب فيهما. سـمعها تهمـس باسمه كأنما تستغيث. اسمه يكتب في ألق عينيها السـداوين الصاعدتين إليه. يمرر في كفها أصابعه الهائجة كمن يبتغـي حرث أرض يعرف محصـودها. يحـرث ليتعـالى همـس الاستغاثة، ويسكن سمعه واضحا: عيسى... عيسى!. وتكون يده قد شدت إلى صدرها حيث ضمتها كفاها بحرص حمـيم. لا يصدق. يدعها هناك للحظة، للحظات؛ ثم يجذب إليه إحدى يديها. يجعل باطن الكف قريبا..قريبا (يجده حقـلاً خفيضـا ملونًا بأحمر الدحنون* وناضحا بشذى الياسـمين)، ويتـرك لوجهه المتعب أن يسرح فيه بعد تمرغ طويل!

"كم من المدن لم أر؟" خطر له أن يسأل، بينما انفصل جسم غير ملحوظ عن تشابك الأجسام الكامدة علـى الضـفة الأخرى. لكنه عاد وصحح السؤال: "كم من المدن رأيـت؟!"

---

* الدحنون: شقائق النعمان.

عندها، صحا على الصوت الذي لم تخفـه نسـمات البريـة الغافية:

"هل نمت؟.."

دقق في نقطة انبثاق الصوت، ورأي شبح علي يشـير بذراعه أن تعال. ولو لم يتميز حافة الخوذة، التـي تخطفـت بالتماعة ميتة، لاعتقد بأن الذراع البعيدة عود قصب مال ثـم انتصب. عاوده تحفز القط. استقام بظهره، فضربه الوجـع. أدرك حينها أن وقت ركوعه وانحناءته كان طويلاً. أصدرت ركبتاه طقطقة التقطها، من بين الأصوات المهموسة السرية، وخالها كأنما هي مفاصل باب صـدئة. هـم بعبـور المـاء مستعيدا ليونة جسده المتخشب. كاد يعثر، إذ اصـطدم رأس حذائه بحجر ناتئ غمرته العتمة ووجه المـاء المفضـض. توازن، وخطا باحتراس دون أن يصدر أقل طشيش.

وصل إلى دغل القصب مكتشفًا أنـه لـيس بالكمـادة المخيفة، أو التشابك العظيم، كمـا تصـور. ثمـة فسـحات فراغية، وثمة ما يمكن تبينه بين الأقدام. نظر إلـى سـاعته خشية أن يكون الزمن قد سبقهما: فـي الميعـاد المرسـوم، وفضيحة الفجر ما تزال بعيدة. استدار نحو علي الـذي بـدأ

يتقدم باتجاه الغرب. سأله، بينما هما فـي منطقـة القصـب الطويل:

"لقد تأخرت. "

لم يجب علي، وواصل التقدم الحذر مراعيا ألا يحـدثا صوتًا للقصب الخروق بجسميهما. تبعه عيسى حتـى كـاد يحتك به. حذره الآخر بهمس:

"دع مسافة بيننا. " ثم، وبعد أن قطعا بضعة أمتار، قال له:

"لقد بلت. "

"ماذا؟"، همس عيسى مستغربا.

"كان أول شيء فعلته هنا. لقد بلت. "

"خائف؟"

"ابن العاهرة!"، شتمه علي، ثم أصدر ضـحكة مثـل نهنهة. غير أن عيسى كان يلمع مطلع القصيدة (لـم نعتمـر خوذة للرصاص الذي فاجأ الأرض، أو قد يفاجئها). توغـل أكثر قبل أن يوضح:

"أنا أخاف الموت. هل تخافه مثلي؟"

عاد علي رصينًا: "كلنا. "

"ليس عيبا، إذن. "

قال هذا لنفسه، متذكرا الأيام والشهور التي أمضـوها ينتظرون الأمر الذي يجهلونه. أهو أمر الإجازة والتسـريح. أم أمر ولوج الغرب الموصد؟ فالمكان هدنة رتيبة لا سـلام فيها. والجبهة انصراف الجنود إلى خنادقهم. كتبهم المخبـأة. ذكريات المدينة. حبيباتهم. لهفتهم الشبقة إلـيهن. رسـائلهم المكملة للناقص من البوح الذي انقطع عند الدقائق الأخيرة..

(أصرف الوقت بانتظار الإجازة القادمة. كـان لـون قميصك في آخر مرة رائعا. كيف شوارعنا؟ أشتاق للمشـي فيها ولا أتصورها بدونك أبدا. هل قلت لك بـأنني اشـتريت رواية ريمارك؟.."للحب وقت وللموت وقت". هربتها إلى هنا مع كتاب الحصار لأدونيس. استعار علي الرواية. قال بـأن علينا الاستفادة من هذا الموات وإلا أماتنا. هو قال هذا. يملك علي فصاحة تشبه فصاحة الشاعر الـذي نحفـظ قصـيدته. تذكرينها. إنها مدن الماء ما نبتغي..مقطعك المفضل. أتعرفين يا مريم أنني أحلم بمدن الغرب؟ كان عمري سـنتين عنـدما وقعت الحرب. أنا لا أعرفها...).

الجبهة نافذة على مشهد بات أليفًا.

ينهمر الوقت رملاً تتلاعب الريح بذراته، وتسفه ليركد في خنادق الوجوه التي شققها الانتظار.

"طال الانتظار يا عيسى. "، تشكى علي.

"لم يبق من السنتين إلا القليل. "، هون عليه عيسي.

"لا أقصد الخدمة. "

"ماذا تقصد إذن؟"

أشار على صوب الأخيلـة المتمرأيـة بـين راقـات المسافة. هز عيسى رأسه. ورفع كتفيه قائلاً:

"ماذا بوسعنا أن نفعل؟"

"ليس الانتظار، يا صديقي. "

ولما لم يجد عيسى ما يقوله، أكمل الآخر:

"سيميتنا هذا الموت!"

(..بالمناسبة. علي ينقل لك تحياته. يقول إنه أحبك من كثرة ما حدثته عنك. لكمته على صدره وقلت له إنني بدوي أغار. قال إن أخته الوسطي اسمها مريم أيضـا. وضـحك مني. بعد انصراف طابور الصباح جلـس وحيـدا. ذهبـت ووجدته مهموما. وعندما سألته ما به قال إنه شـاهد مـريم

ترجم الجنود بالأحجار. رأى أخبـار الضـفة فـي نشـرة التليفزيون يوم آخر إجازة. العالم عذاب كبير لا أفهمه.

مريم. انتظريني. ".

"سأنتظرك": قالت له في عمر لم يبرح، بعد، التحـام جسده المنخور بالصـخرة المعتمـة التـي غلفتهـا الغيمـة المترهلة.

ناكفها: "سنتان طويلتان. هل تقدرين؟"

أصرت: "ستمران كالكذبة تحت حذائي. أحبك. "

دهش، فأفصح: "أين خجلك! صراحتك تربكني. "

أشاحت بوجهها، بينما هرولت في أصابعها قوة أخذت بصهر ذراعه المستسلم لها. باح لنفسه بالنشوة لوجودها إلى جانبه فتاة تحبه. هي كنزه الذي خبأه للوقت كيما يقتات على لذاذاته، ويحترق باشتعالاته، حتى تنصرم السنتان بسلام.

لا شيء يحدث ليقطع سـلام الوقـت هنـا، ويحيـل الانتظار هنالك، عند مريم، إلى خوف يحبك الملاءات ما بين المسافات والأمكنة. لا شيء يحدث. لا شيء ينبغي أن يحدث ليبعثر ترتيب الأشياء، ويجعل من العالم فوضى. ينبغـي أن يظل كل شيء غاطسا في رقدته حيث نمت حشائش الأرض،

منفوشة، مثل شعور مجنونات القرى. حيـث ألفـت شـمس النهارات أعمدة الغبار المتلولبة، كعفريت الأساطير الطـالع من قمقم بحري. حيث تتلات الرمال الطيرتها ريح الملح على ظهور خيام الجنود. حيث يشع القمر في رهبة التلال التـي فسختها آثام "لوط"، من قبل أن تصير معبرا لدوريات الليل. ومن بعد أن صارت دربا مرصودا يسلكه عيسى وعلي. يشع القمر نافذًا حتى شقوق التفسخ فـي وجـه الأرض. حتـى الأخاديد الزائلة التي رسمتها الخيالات على وجهـي اللـذين صارا في العراء المفضوح. حتى السحالي المخلفـة خيـوط ذعرها على التراب بين أقدامهما. حتى أوكار الثعابين الخافية للمعة جلودها، وبريق عيونها التي بهرتها ما لفظته السـماء، فجأة، من عناقيد ضوء عملاقة!

صار الليل نهارا كاملاً.

شبت الطلقات بعدها مالئة آذان البشريين المـذهولين بدويها. تراكضا ليخرجا من النهار المنفلق خائنًا موعده: كل الأمكنة نهار. العيون لا تبصر سوى فضة العماء الطاغيـة. الآذان لا تسمع غير تفجر الجحيم الـذي سـورهما بحممـه الدافقة. كانت الأرض تلتهب متلونة بالرصاص الخطاط الذي

حدد مكانهما، يرافقه مزنرا جسديهما رعد المتفجر الخـارق.
مادت الأرض بهما، لكنهما ذهبا فيها يفتشان عـن مأمنهـا.
هبطت الخطوط وتشظت أحجار الكلس وقد هشمتها رعونـة
البارود. ربما كان هذا كله سببا لعدم إدراك عيسى أن غزوا
ما، يشبه اللسعات الحارقة، قد نخره في غير جزء من جسده.
ربما كانت التفجيرات القريبة، أيضا، سببا آخر فـي ذوبـان
نداءات علي، وانزلاقها التائه في واحد من الوديان الجافة.

صار عيسى وحيدا، من جديد.

الغيمة باردة والوقت لا يوقـف. الصـخرة جلمـود
والروح لا يأسرها البدن الذي أرعشه انفجار خفي. أشـهرت
اليد أصابعها في الهواء مثل مخالب الصـقر. عنـدها، دوت
الطلقات في الرأس، ودفعته للارتجاج مرات ومرات. غـاب
مخترقًا ألفة الأشياء الجديدة. غاب عن محسوساته ولم يلحظ،
لحظتها، أن تلاقح اليدين، بمساماتها اللاقطة، قد أتى بالروائح
المميزة والحادة. وأن للأشياء القديمة ذكراها القـادرة علـى
خلقها من جديد. وأن لليدين معجزة رؤية الألوان.

لم يستنكر عيسى ذلك كله: كان حاضرا خلف الوقـت وفوق المكان: كان يشهد ما كان وفي رأسه صدى الـدوي: صدى الطلقات.

الرائحة بارود.

واللون دم.

أما المدن، فكما الماء الحبيس في الغيمة التي تقوسـت الأصابع، كمخالب الصقر، تبتغي طعنها. ظلت هكـذا بينمـا ريح الملح تمرق بين الدم الصابغ للزندين، والقميص الـذي ثقبته الحروق. جاءت ظلمة، وطلع صوت يسـأل الصـمت المهاجر في الجسد المنخور. يستنطقه وسط رهبة التلال التي فسختها آثام "لوط"، من قبل ان تصير معبرا لدورية الـذهاب الأخير:

اسمك؟ (كانت الصحف قد نشرت بأنه عيسى).

أبوك؟ (وبينت بأن اسمه محمود).

جدك؟ (أحمد كما أكدت).

غير أن الصحف (تلك الصحف) لم تنشر عن مـريم التي انتظرته حتى جاء،

مضيئًا مثل حبة ندى تعلقت بلسان ورقة شجر.

"تعال لأرشفك. "

"ما بك!"

وملوحا كنصف زنجي، ففرشت كلماتها في وجهه لون الخجل.

دنت منه تتحسس، بأصابعها الصغيرة، النتـوء فـي منتصف ذقنه الحليقة. تحرج متطلعا إن كان النـادل قريبـا منهما. ولما لم يكن خلف الطاولات أحد، قطف يـدها نحـو فمه، وقبلها. لم تخفض عينيها هذه المرة. ازداد تحرجه رغم جرأته الأخيرة:

"ما بك؟".

قالت بصوت واضح لا همس فيه:

"دعني أرشفك!"

اتسعت دهشته: "هل نسيت بأنني بدوي؟..عيب!"

"للحب وقت. "

"إذن، وصلتك الرسالة. "

"وصلت.."، وواصلت هي العبث بشعر ذراعه. كانت أصابعها الصغيرة تحرثه، صاعدة إلى أعلى، ثم تعود لتملس عليه، وترتبه كلما نزلت حتى تستقر في كفه المفتوحة لها.

"سأكتب لك كثيرا. "

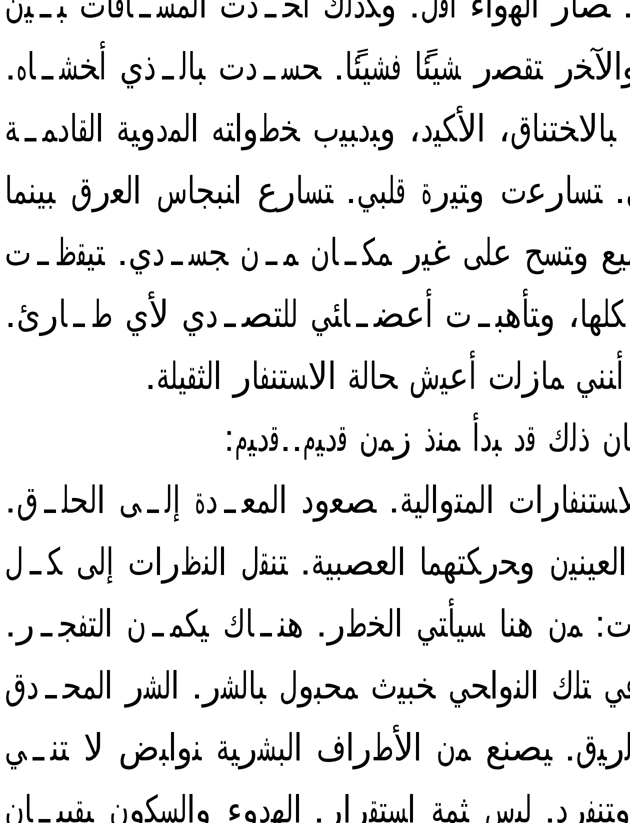
"أخاف عليك. "

"مريم.."

"عيسى.."

كان زجاج واجهة المقصف العريضة مشطورا، لغاية التماسك والحماية، بصليب من الحديد المدهون بالأحمر.

الأكتاف



حين اكتظ المكان ارتفع اللغط، وباتت كمية الأوكسجين لا تكفي. صار الهواء أقل. وكذلك أخذت المسافات بين الواحد والآخر تقصر شيئًا فشيئًا. حسدت بالذي أخشاه. أحسست بالاختناق، الأكيد، وبدبيب خطواته المدوية القادمة في دمي. تسارعت وتيرة قلبي. تسارع انبجاس العرق بينما حباته تميع وتسح على غير مكان من جسدي. تيقظت حواسي كلها، وتأهبت أعضائي للتصدي لأي طارئ. اكتشفت أنني مازلت أعيش حالة الاستنفار الثقيلة.

كان ذلك قد بدأ منذ زمن قديم..قديم:

الاستنفارات المتوالية. صعود المعدة إلى الحلق. زوغان العينين وحركتهما العصبية. تنقل النظرات إلى كل الاتجاهات: من هنا سيأتي الخطر. هناك يكمن التفجر. الهدوء في تلك النواحي خبيث مجبول بالشر. الشر المحدق يجفف الريق. يصنع من الأطراف البشرية نوابض لا تني تتقلص وتنفرد. ليس ثمة استقرار. الهدوء والسكون يقببان

رؤوسنا، لكن الاختناق يضغط الأرواح فيتسـارع الشـهيق والزفير.

***

أتاني صوت الصديق ليؤكد لي ما ذهبت إليه:

"إنه الاختناق يا صديقي. "

ولما سألته عما يتحدث، انتهرني قائلاً: "ألهم تفهم؟"

قلت: "لا. لم أفهم. "، غير أنه لم يفصـح ولـم يقـدم تفسيرا.

عجبت من نعته هذا لحالة الهدوء التي كنـا نعيشـها حينذاك.

كان البحر أمامنا يمتد حتى حدبة الأفـق المتلاشـي. وكانت "صخرة الانتحار" جسما صلدا نابتًا، بلا ملامح، مـن غابة الماء الطحلبية. وكان على يسارنا في الأسـفل، فـوق رمل الشاطيء المهجور، رجل وامرأة يـدبان عنـد ألسـنة الموج المتدافعة.

أجل. "، قال صديقي: "إنه الاختناق"، وكان ذلك فـي زمن مضى. في زمن كان البحر فيه أصغر مـن أحلامنـا. والسماء أضيق من أن تتسع لطيور فرحنا الآتي.

قلت له ذلك؛ إذ تنبهت إلى أنه يقصد عناوين الصحف الضاجة بالترقب والنذور.

لم ينطق، واكتفي بأن ربت على كتفي. انتفضت من تحت أصابعه، والتفت أواجهه، ساخطًا: "أنت لا تقرأ غير السوء في العالم!".

ضحك ضحكة فاترة، قصيرة، ثم قال دون أن ينظر إلي، ووجهه صوب "صخرة الانتحار" التي أخذت ملامحها تتضح بالتدريج:

"وأنت؟.."

عاجلته: "لا أقرأ ما تقرأ. "

هز رأسه عدة مرات قبل أن يقول، مشددا على كل كلمة كأنما يخرجها من مكنوزه العتيق:

"صحيح. أنت لا تقرأ سوى الشعر في العالم!"

أزعجتني مبالغته في رؤية الأشياء على أنها محض سياسة. قلت، مستشعرا صحة مخاوفه، مكابرا التنازل والتفريط بالجانب الذي أحبه في الحياة:

"هل تنكر على تحسس العالم في الشعر؟"

"لا. " قال. "غير أن تحسس العالم فـي العـالم أكثـر جدوى!"

ولم أنظر إليه – وقتذاك – مباشرة. كنت أتابع بعينـي ألسنة الموج وهي تلعق قدمي الرجل والمرأة.

***

كنا نفر من الموج ونضحك. سقطت فردة حذاء مـن يدها. انحنت محاولة التقاطها بعجلة. كانت المويجة أسـرع، إذ حملتها معها في جزرها، ثم أعادتها مقلوبة على وجههـا. تسمرت جميلتي بقدميها الحافيتين، الغائصتين فـي الرمـل الطري، وقد أسندت أصابعها الحرة علـى خصـر ثوبهـا الفضفاض. كان ثوبا أزرق. بدت مثل صبية أصيبت بنكسـة في شيء عزيز عليها. حردت تنتظر مـن يواسـيها بكلمـة طيبة..أو بتربيته على الكتف.

***

سمعته يقول: "أنت لست معي. "

قلت: "معك ومعها. "

قال: "هذان؟"

قلت: "هذان. انظر إليهما. انظر.."

كانا في الأسفل، فوق رمـل الشـاطئ المهجـور إلا منهما: الرجل يلتصق بالمرأة التي دفنت رأسها عنـد كتفـه. والمرأة تداري من عينيه – وربما عيوننا – ما كان الهـواء يكشف من عري أعلى ركبتيها...

صدرت عن صديقي همهمة، ثم أوضح:

"هذا يستهويك. قل. إنه يستهويك. "

كانت أصابع المرأة تحاول لملمة طرف ثوبها المتطاير إلى أعلى، بينما الهواء يعمل على النفخ فيه..

نفخت من عمقي:

"نعم يستهويني. يستهويني.."

ولما أدركت أن لا جدوى من مغالبة الهـواء، تركتـه يهب عليها كما يشاء. رأيتها تطلق أصابعها نحو كتف الرجل الذي تلقاها في احتضانة أليفة. رأيتهما يندمجان فـي واحـد متحرك ويغيبان. كانا يغيبان وراء رائحـة الملـح، ومـذاق السمك الشهي ، وهواء البحر الذي لـم يكـن – حينـذاك – معاديا.

***

ماج البحر، فماجت السـفينة، فتماوجنـا مصـطدمين بالأكتاف. تدحرجت، من عيوننا، منازل المدينة التي ودعتنا بالرصاص. تذكرت صديقي حين قال لي – كانـت النسـوة يرقصن لنا في حلقات على امتداد الميناء، ويلوحن بالبنـادق بدلاً من المناديل:

"أأدركت الآن كيف يكون الرصاص دموعا؟"

لم أجب.

كنت أحاول أن أغيب عن عينيهـا المفتشـتين بـين الجموع. قالت إنها ستجئ. فصددتها عني، وصارت أمـامي دمعا معلنًا وعذابا لا يطاق. قلت لها:

"لا أطيق الوداع. "

فانهمرت علي غير مدركة أني جدار لا يسند نفسه.

***

رأيت كل شيء. رأيت كل ما رآه غيري. رأيت أكثر مما رآه البعيدون عنا. الذين يرصدوننا عبر أصوات المذياع ويشاهدوننا، باستثارة، بين هدف للبرازيل وآخـر لإيطاليـا. الذين يتعقبوننا ونحن نعتلي ظهر السفن، ونلتمـع بملامـح ملتبسة على زجاجات التليفزيون.

أجل. رأيت كل ما وفره لي عمري أن أراه من مدينة أعطت، لكنها هذه اللحظة ارتبكت، ولم تعرف كيف تمنحني جميلتي. ارتبكت ولم تقو على منح جميلتي سندا تواصل معه هناءة يوم... أو أكثر قليلاً.

"أنت سندي..". رددت هذا وكررته حتى مزقت الشمس غشاوة الليل؛ فانسللت هاربا من نومها الدافئ. كان الميناء مدينة في يوم قيامتها. وكان الفضاء ثوبا أزرق احتقن باطلاقات الرصاص الوداعية، وبصرخات الباقية من دوننا:

"لا تتركنا!..أين؟!"

نظرنا من زوايا أكتافنا، ورأينا البحر يميل بنا كلما اعتلينا درجة صوب ظهر السفينة. نظرت من زاوية كتفي، فرأيت وجهها الهلع يطفو فوق الوجوه. وجهها الصامت وأصابعها الطائرة إلى عبر حشد الدموع وطبقات الرصاص. "لا تتركونا!.."

وارتفع اللغط في حين اكتظ المكان بالأكتاف المتدافعة. حاولت الانسلال، غير أن المسافات ضاقت حتى انعدمت. والأنفاق هاجت حتى علت على هدير المحرك. والأكتاف تلاصقت حتى التحمت ببعضها بعضا. التحمت مثلما التحم

وجهي بكتفها الطري الذي رضي بدموعي واستقبلها، في انحداره الهادئ صوب ربوة النهد، استقباله لمحارب انكسر دون أن يعرف السبب.

سألتني، وكنت أملس على رأسها النائم فوق صدري:

"لماذا؟"

سحقت السيجارة بعنف الغضب المتحبل في أوردتي:

"اسأليهم. "

كان الغد موعدا يرقبه العالم ونحاول، عبر زمننا الداخلي، اعتراضه ومنعه من الوصول.

مضت دقائق من الصمت المشغول بتفكير أربكته توسلات روحينا المتشابكة. هبت علينا من النافذة المشرعة نسمة رطبة. لم تنعشني، لكنها أطارت من الجميلة نداءها:

"كيف تتركني؟"

فأخذتها إلى أكثر.

ثم قالت، وقد دست ذراعها تحت ظهري، وشدتني إليها:

"أنت سندي. "

وكنت أقبل، لحظتها، ملاسة كتفها الحميم..المتماسك.

***

هذا ما حدث منذ زمن قديم..قديم.

وأذكر، منذ ذلك التاريخ، أن الأوكسجين لم يعد يكفي. صار الهواء أقل. وكذلك المسافات بين الواحد والآخر تقصر هي أيضا. حدست بالذي أخشاه. أحسست بالاختناق الأكيـد، وبدبيب خطواته المدوية القادمة في دمي. تسـارعت وتيـرة قلبي. تسارع انبجاس العرق بينما حباته تميح وتسـح علـى غير مكان من جسدي. تيقظـت حواسـي كلهـا، وتأهبـت أعضائي للتصدي لأي طارئ.

أطلقت السفن صـافراتها، فقامـت القيامـة وانهمـر الرصاص.

وها أنا أكتشف بأنني ما أزال أعيش حالة الاسـتنفار الثقيلة.

وأنني مسكون بعالم عنيد يأبى، رغم انقيـاد الـزمن للإبحار والرحيل، أن يبرح نكهته وكتف الجميلة.

القسم الثالث

تداعيات رجل من جليد

تلويحة

الحكيم

قطاف

تداعيات رجل من جليد

"إلى من حفر تحت الجليد لينبجس الماء.

إلى من حرك رماد الروح لتتعرى الجمرة".

-١-

انعقدت سحابة متكثفة من البخار إثر سكب زوجته الشاي في فنجانه. حاول الارتشافة الأولى، تراجع بفمه ملسوعا، وهرب بعينيه نحو النافذة. رأى خلف ضبابية الغبش، المتشرخ بخيوط المطر المنزلق، ذؤابات الشجرة المثقلة بالثلج.

"طوال الليل!": فكر دون أن يزيح عينيه عن النافذة.

"أجل. سقط الثلج طوال الليل". كرر بصوت مرتفع، هذه المرة، هازا رأسه الذي رمدته خصلات البياض في شعره.

لكن الزوجة لم تعلق.

حاول أن يتخيل بداية الثلج. متى؟ في أي ساعة؟ لماذا لا يحدث الثلج صوتًا كالمطر؟ ألأنه ليس ثقيلاً على الأرض

والنوافذ؟ ألأنه لا يريد خدش نوم النائمين؟ ألأنه يعرف الفرح الذي سيولده في النفوس عند اكتشافه في الصباح؟..

رشف الآن دون أن يلتسع. سرى الشاي دافئًا والتمعت عيناه بوميض مندثر. حدث نفسه:

"إنه المفاجأة البيضاء. "

وابتسم.

راقت له صياغة التشبيه: "المفاجأة البيضاء. المفاجأة. الورقـ ـة بيضـ ـاء. الأرض ورقـ ـة. مفاجـ ـأة. قـ ـد تكون..ربما..بيضاء..ستكون،"

وقام من فوره إلى النافذة ونظر:

كانت الحديقة مكسوة بطبقة سميكة من الثلج النظيف.

وكانت الأشجار قد انحنت للبياض الذي أخذ يـدثرها طوال الليل.

وكان الشارع مثل ذلك اليوم. ذلك اليوم القديم. ذلـك اليوم الذي بعث من جديد، قاطعا رشفه لشايه الصباحي، حين باغتته الفكرة، ودفعته للنظر من النافذة.

أجل:

كان الشارع الأبيض مخططًا بعجلات السيارات التـي مرت، مبكرة، صوب افتتاح النهار.

-٢-

"ماذا هناك؟"

سأل بصوت خفيض.

غير أن الولد لم يجب.

تقدم وهو ينظم بأصابعه فوضى شعره الـذي بعثـره النوم.

الغرفة شحيحة الإضاءة.

الولد ينهض على ركبتيه يحدق بالنافذة.

ظلام.

زاد من تقدمه عازما على أن لا يسأله.

ظل الولد يحدق بالنافذة.

-٣-

مرت سيارة فوق خطوط العجلات التي حفرت لنفسها مسلكًا في طبقة الثلج.

قال للزوجة: "انظري". ثم انتبه إلـى أنهـا غـادرت الغرفة. صار وحيدا. ينظر إلى الشارع وأشـجار الحديقـة. بيضاء. الحديقة بيضاء. السماء بيضاء. والطريق، لولا خطا السواد فيه، لكان سطحا ممتـدا للبيـاض الكلـي. البيـاض السماوي الملتحم بهذا المدي النظيف.

ثم خيل إليه أنه سمع صوتا!

فتش بعينيه من وراء النافذة. تلك النافذة التي ضـببها الغبش المتشرخ بخيوط المطر المنزلق. تلك النافذ في الطابق الثاني يطل منها على المدى.

رآهما.

أجل:

كانا يدبان فوق الثلج، كنقطتين بعيدتين، ويصله صوت ضحكات كأنما تصدر من حلم قديم.

- ٤ -

"أنا متشكك": قال.

"لا يهمني": قالت. ثم استدركت، فسألت:

"ماذا تعني؟... " وأبقت أصابعها فوق يده. لكنه أحس بارتخاء الإمساكة المطمئنة وبشيء من الرطوبة.

قال: "لست سهل المعشر. أعني. لست متأكـدا ممـا في..". تلجج، وجاهد لكي يجد الكلمات الأنسب، غير أنه عاد ليحس بالرطوبة ندى يضمخ شعر يده. أضاف متسـرعا إذ ارتبك: "لماذا تصرين على نبش ما تحت جلدي؟!".

حركت أصابعها أمام وجهها كأنما تطرد شـيئًا تـراه وحدها. ثم شبكتها ناصبة مرفقيها على الطاولـة، وأسـندت ذقنها بإبهاميها الرقيقين. أشاح عن وجهها عندما رأى نظرتها تستقر أخيرا على عينيه.

كان للندى في شعر يده عطر خفيف.

قال صوتها:

"لأني أحبك. "

ارتعش شيء في داخله مصرحا فاضحا: "أنا لم أقـل هذه الكلمة قط! لم أشعر بها قط!". أدار وجهه ناحيتها. رأى الصرامة في ملامحها نحتًا يكاد يقول أي جملة إلا هذه. تذكر لحظتها أنها لا تشاهد المسلسلات العربية:

(- إنهم يسخرون منا.

كما أنها لا تحب الأغاني الرائجة:

- كلمات لا تقول شيئًا.

- وماذا عن الأغاني التي كلماتها شعر؟ أنت تحبـين الشعر.

- تفاهة نخب أول.

- كلها؟

- لا تزعل. تسعة وتسعين بالمئة. ما رأيك؟.).

"ما رأيك؟"

عادت لتسأل.

"لدي عاداتي السيئة. "

"مثل؟"

"لست متأكدا. "

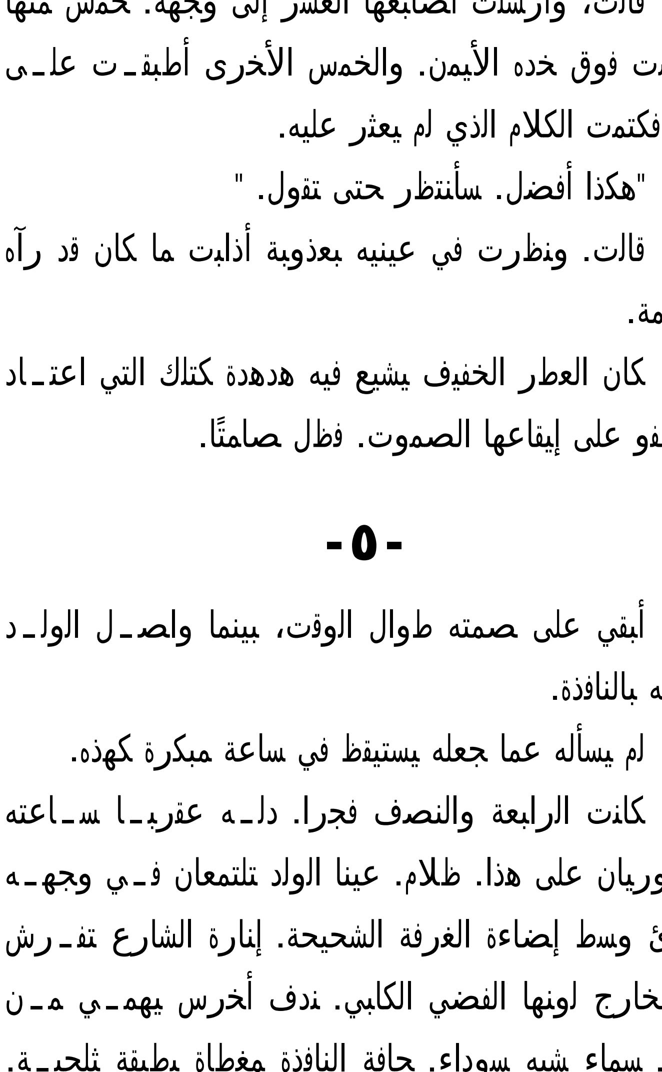
"أنت لم تجب. "

"لا أعرف كيف أقول. "

"حاول. ".

"أشياء لا تقال. "

"أساعدك. "



قالت، وأرسلت أصابعها العشر إلى وجهه. خمس منها انفرشت فوق خده الأيمن. والخمس الأخرى أطبقـت علـى فمه، فكتمت الكلام الذي لم يعثر عليه.

"هكذا أفضل. سأنتظر حتى تقول. "

قالت. ونظرت في عينيه بعذوبة أذابت ما كان قد رآه صرامة.

كان العطر الخفيف يشيع فيه هدهدة كتلك التي اعتـاد أن يغفو على إيقاعها الصموت. فظل صامتًا.

- ٥ -

أبقي على صمته طوال الوقت، بينما واصـل الولـد تحديقه بالنافذة.

لم يسأله عما جعله يستيقظ في ساعة مبكرة كهذه.

كانت الرابعة والنصف فجرا. دلـه عقربـا سـاعته الفسفوريان على هذا. ظلام. عينا الولد تلتمعان فـي وجهـه الهادئ وسط إضاءة الغرفة الشحيحة. إنارة الشارع تفـرش في الخارج لونها الفضي الكابي. ندف أخرس يهمـي مـن أعلى. سماء شبه سوداء. حافة النافذة مغطاة بطبقة ثلجيـة.

وجه الثلج حفر دقيقة ناعمة هشة. وجه الولد رائق مثل ملاك نبيل. عيناه تبرقان كحجرين أسودين كريمين.

استمرا في الصمت والضوء الشاحب يجلسان.

اندس الولد في حضن أبيه الهامد على الأرض، فسري في الاثنين دفء من الاثنين.

كان كل منهما إلها أمام هذا العراء الأبيض.

الولد يشكل رجله الثلجي في الصباح الذي لم يأت بعد.

والرجل يلملم امرأته من النهار الذي لن يعود قط.

-٦-

"لماذا لا تحكي؟": قالت.

"ماذا أقول؟": سأل. ثم تنبه إلى المطر فـي الخـارج. وتذكر أنها تعشق السير تحته. حاول كسر الجليـد الـرابض فيه:

"أترغبين في المشي؟"

"ليس الآن. "

صمت حائرا، وفر إلى مراقبة انثيال الماء على سطح الواجهة الزجاجية. كانت الأغنية تتحدث عن "شادي" الـذي ضاع في الجبال. عثر على شيء يقوله، فسألها من جديد:

"بماذا تفكرين؟"

قالت، وعيناها ترصـدان طرطشـة حبـات المطـر الخرساء تهوي في البرك الصغيرة:

"لماذا لا تغازلني؟"

فوجئ ولم ينبس.

تابعت جادة: "تقول لي كلاما صادرا من داخلك. تقول لي نفسك. "

ولما لم تجد ما يقوله لها، عـادت إليـه، بنظراتهـا، وواجهته قائلة:

"أنسيت بماذا يذكرني المطر؟"

كان قد نسي.

انكفأت إلى شرودها، وطفقت تقول:

"عيناك غابتا نخيل ساعة السحر،

أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر.

هل نسيت؟ آه..لقد نسيت. ".

وأخذت تطرق الطاولة بأظافرها.

تذكر لحظتها أنها تحب هذا الشاعر. وتذكر، أيضـا، أنشودته هذه التي قالت بأنها تستحضرها، بفرح، كلما جـاء الشتاء. وأنها دفعته لأن يحفظها من كثرة ترديدها لكلماتهـا. فسارع يقتبس ليردم ما اكتشفته من مسافة بينهما:

"مطر..مطر

أتعلمين أي حزن يبعث المطر؟

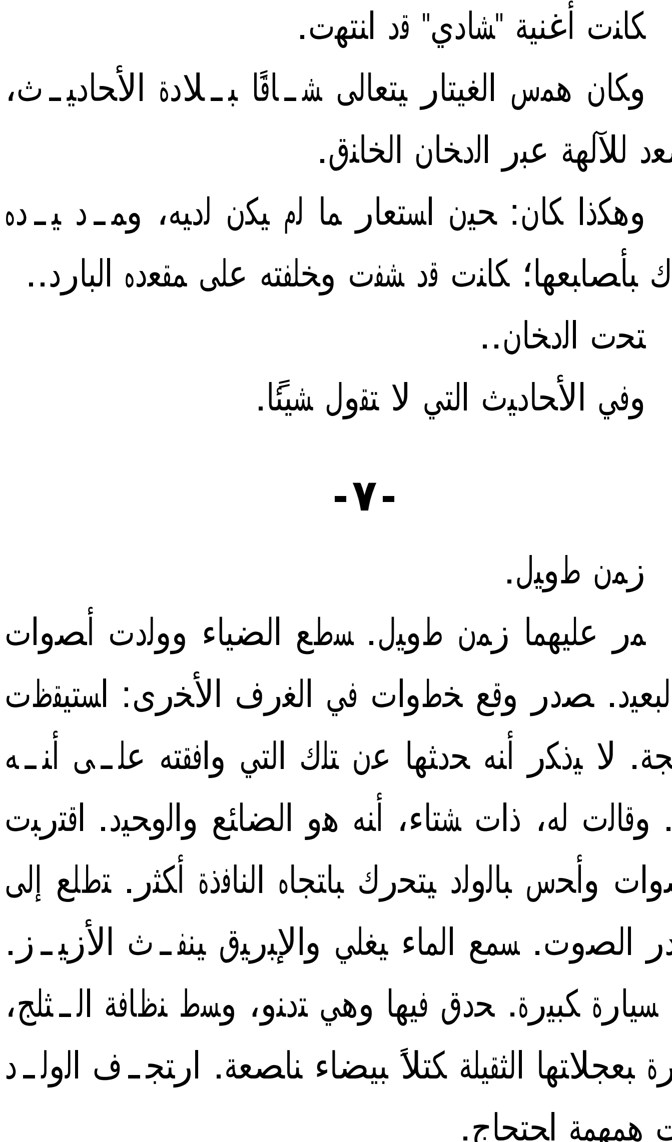
وكيف تنشج المزاريب إذا انهمر؟

وكيف يشعر الوحيد فيه بالضياع؟".

قاطعته بنبرة نزقة، وصوت هدجه الغيظ:

"كفى! كفى!...."

لم يصدم لهذا الانقلاب في مزاجها، إذ بات يرى كـم هي المسافة الخاوية الفاصلة بينهما. كم يحوي الخواء جليـدا قاسيا. لام نفسه على الغلطة التي ارتكبها. الغلطة التـي أدت إلى وضوح عريه. استسـلم للآتـي، ولعيـون الحاضـرين المستجيبة لصوتها الذي نهض داخل قاعة الـدخان. قاعـة الزجاج المضبب، والمرايا الصقيلة الكامدة التي تطفئ الوجوه وتبطن الأصوات.



كانت أغنية "شادي" قد انتهت.

وكان همس الغيتار يتعالى شـاقًا بـلادة الأحاديـث، ويصعد للآلهة عبر الدخان الخانق.

وهكذا كان: حين استعار ما لم يكن لديه، ومـد يـده ليمسك بأصابعها؛ كانت قد شفت وخلفته على مقعده البارد..

تحت الدخان..

وفي الأحاديث التي لا تقول شيئًا.

-٧-

زمن طويل.

مر عليهما زمن طويل. سطع الضياء وولدت أصوات في البعيد. صدر وقع خطوات في الغرف الأخرى: استيقظت الزوجة. لا يذكر أنه حدثها عن تلك التي وافقته علـى أنـه جليد. وقالت له، ذات شتاء، أنه هو الضائع والوحيد. اقتربت الأصوات وأحس بالولد يتحرك باتجاه النافذة أكثر. تطلع إلى مصدر الصوت. سمع الماء يغلي والإبريق ينفـث الأزيـز. بانت سيارة كبيرة. حدق فيها وهي تدنو، وسط نظافة الـثلج، مبعثرة بعجلاتها الثقيلة كتلاً بيضاء ناصعة. ارتجـف الولـد وأفلت همهمة احتجاج.

"ماذا؟"

سأل.

"انظر!"

قال الولد، مشيرا إلى السيارة المارة تحت النافذة.

كانت تهدر مواصلة بعثرة البياض النظيف، مشكلة خطين أسودين متوازيين لن يلتقيا.

-٨-

عجوز عبر عليه العمر ومضى.

عجوز وحيد في الغرفة الساكنة. فنجان شاي ركد فيه برد المكان. عينان، ذواتا وميض مندثر، ترقبان ما كانا نقطتين بعيدتين. صارت النقطتان تتضحان. رجل وامرأة. ضحكات تنفرش فوق البياض الكلي. صارا في مدى الرؤية. يدبان. يلتصق العجوز بالنافذة. تمر به الزوجة وتذهب إلى شؤونها. جسم بلون السماء المغطاة بالغيوم، وآخر باخضرار العشب المدفون تحت الثلج. تطير الضحكات إلى أعلى. تصفع النافذة في الطابق الثاني. فتى وفتاة. لا ينظران إلى

النافذة. يطلقان الكلام. يسمعهما. شفتان مزمومتـان خلـف الشاربين الأشيبين. يسمعهما تحت شجرة الرصيف:

"أريده. "

يقول الأزرق.

"ماذا؟"

"فمك الذي يسكب عسل الكلام"

ترتفع الضحكة الخضراء منتشية:

"وماذا أيضا؟"

"وأصابعك التي تعزف على نشيد المطر. "

تقهقه: "أنا؟!"

يقول الأزرق: "أنت. "

ويتحركان بعيدا عن عيني العجوز الذي لم يعد يسـمع كلاما.

ثمة الأصوات الشبيهة بالهمس المخنوق: يدبان بفـرح بين الأشجار.

ثمة الاحتكاك الصارخ في برية الثلج: يقبل ما يسـكب منها العسل: وتستفز فيه لحن المطر.

ثمة التصدع الزاعق وراء حجارة الأسوار: يلتحمـان بثقلهما الضاغط على صلادة الجليد المتكسر.

تدخل الزوجة لتأخذ فنجان الشاي.

يواصل وجه العجوز انزلاقه المهدود علـى النافـذة الباردة.

لا يتكلمان.

لا يذكر أنه حدثها عن تلك التي قالت له، ذات شـتاء، أنه ليس نشيج المزاريب إذا انهمر.

"إذن ماذا؟"

يذكر أنه سألها.

"بل عواء الجليد تحت الأحذية!".

تلويحة

-١-

"هذه امرأة فقدت عقلها!"

سمعت أحدهم يقول واقفًا، ويشير بيده نحو الرصـيف المقابل.

"أين؟"

سأل أحد الزبائن بفضول فضحته بحة اللهفة المتفلتـة من حلقه.

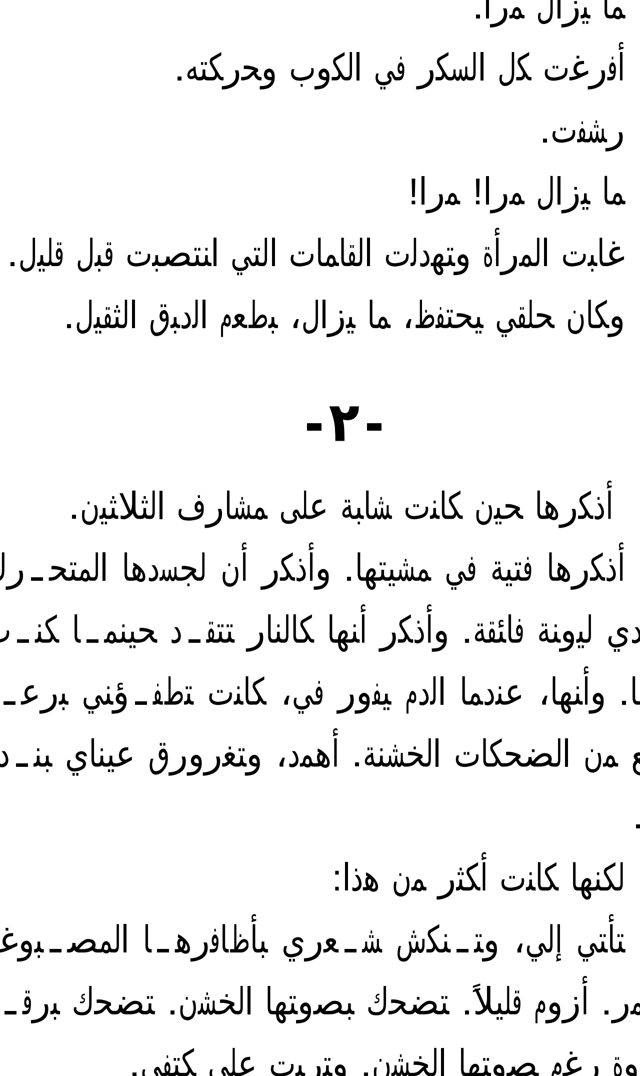
"أين؟..أين؟"

صاح أكثر من صوت، بينما رأيت النادل الكهل يرفع رأسه الأشيب بوقار هادئ، ثم يهزه، إثـر ذلـك، باسـتنكار مترفع، ويمضي وئيدا بين الموائد.

نظرت صوب الجهة المشار إليها؛ فكانت هي .

رشفت شيئًا ما في كوب الشاي. وجدته مرا.

أضفت ملعقة سكر وحركته.



ما يزال مرا.

أفرغت كل السكر في الكوب وحركته.

رشفت.

ما يزال مرا! مرا!

غابت المرأة وتهدلت القامات التي انتصبت قبل قليل.

وكان حلقي يحتفظ، ما يزال، بطعم الدبق الثقيل.

-٢-

أذكرها حين كانت شابة على مشارف الثلاثين.

أذكرها فتية في مشيتها. وأذكر أن لجسدها المتحـرك بين يدي ليونة فائقة. وأذكر أنها كالنار تتقـد حينمـا كنـت ألمسها. وأنها، عندما الدم يفور في، كانت تطفـؤني برعـد متقطع من الضحكات الخشنة. أهمد، وتغرورق عيناي بنـدم وقهر.

لكنها كانت أكثر من هذا:

تأتي إلي، وتـنكش شـعري بأظافرهـا المصـبوغة بالأحمر. أزوم قليلاً. تضحك بصوتها الخشن. تضحك برقـة وطراوة رغم صوتها الخشن. وتربت على كتفي.

"أنت ما تزال صغيرا. أنسيت أنك صاحبي القديم؟"

كانت تقول.

ثم تستطرد بلهجة تأنيب:

"أم أنك صرت شقيا؟"

أوافقها دون أن أعترف. أواصل حردي المقهور. تتقدم مني أكثر، وتأخذ رأسي بأصـابعها الرخصـة. تخشـخش أساورها الذهبية الثقيلة. يحتـك وجهـي بخصـرها اللـدن المحبوك. ترتفع عيناي إلى وجههـا المطـل. تبتسـم دون صوت. تشدهني إليها بحنو، فتقوى رائحتهـا القريبـة مـن الياسمين. رائحتها النفاذة. رائحة جسدها ورائحة العطر الذي لم أشمه عند سواها من النساء بعد ذلك. أتردد لوهلـة. ثـم أحس بقوتها الباطنة تدنيني إلى صدرها الحر. أخفض رأسي وأغمض عيني. يكون احتراقي قد نفر مني ثانية، لكنه هـذه المرة حار، ساخن، له ميوعة الدمع. تهتز فجأة. أحس ببطنها يرتجف ناحية ذقني. أريد أن أرفع رأسي من جديـد. تقـاوم حركتي هذه. تمنعني. تضغط وجهي إليهـا كـي لا أراهـا، فيتشرب ثوبها الأملس ما انزلق وتجمع على خدي.

-٣-

سألتها مرة، وكنا نسير جنبا إلى جنب، والوقت ظهيرة يوم صيفي:

"ما اسمك يا جولييت؟"

ضحكت بصوتها الخشن الذي مازال وقعه في أذنـي، وقالت:

"جولييت. "

فقلت:

"لا. اسمك الحقيقي. "

فترددت قبل أن تسألني:

"أليس هذا اسمي الحقيقي يا ولد؟!"

فغضبت:

"أنا لست ولدا. "

"طيب. لا تزعل. "

"أخبريني. ما اسمك الحقيقي. الأولاد الكبار يقولون أن جولييت ليس اسمك الحقيقي. "

"أي أولاد؟"

"أولاد الحارة. "

فتوقفت عن السير، ونظرت في عيني – أذكر حتـى الآن نظرتها الحائرة تلك-، ثم قالت:

"وماذا يقولون أيضا؟"

"يقولون لي أن أقول لك إنهم يحبونك. "

طلعت ضحكتها الخشنة ساخرة في فضـاء الشـارع المتثائب على حركة بداية المساء.

"حمير!"

وعاودت السير. لحقت بها لأسير قريبا منها. كانـت خطواتها واسعة وسريعة. ركضت لأجاريها. لكنها لم تتمهل. هتفت بها:

"انتظريني. "

"هل أكملت قرن البوظة؟"

لهثت:

"نعم. "

فتوقفت، وواجهتني وأنا مقبل عليها:

"هل ستخبر أمك أنك صاحبي؟"

هززت رأسي نافيا؛ إذ ما كانت ترغب بذلك.

"شاطر. "

قالت، وراحت تطلق فرحها الخشن وهي تمد لسـانها للرجال الذين كانوا يغمزون بعيونهم ويضحكون.

"عليك أن ترجع الآن إلى البيت وحدك. "

وعبرت إلى الرصيف الآخر.

لم أتحرك ولم أرفع عيني عنهـا. أشـارت علـي أن أذهب. تلكأت. سمعتها تهتف:

"إلي البيت. هيا. "

فأذعنت وسرت باتجاه الحارة.

ولما دخلتها كان رماد النهار الصـيفي الحـار مثـل الغلالة الوسخة. التفت خلفي. رأيتها من بعيـد تلـوح لـي. لوحت لها، وتوجهت إلى البيت وقد استيقظ في عالم غريب.

- ٤ -

"لماذا يا جليلة؟"

قلت مهتاجا. كانت قد نفرت ودفعتني في صـدري؛ إذ تجرأت على مطالبتها بحاجة الرجال.

غير أنها لم تُجب. جرعت ما في كأسها، فتثنت صفحة جبينها. تأملتها من مكاني مصابا ببرود حاد، مفـاجئ، إثـر

ردة فعلها. رأيتها كبرت قليلاً. وكنت بدوري قـد كبـرت. لكنني خلت أنني قطعت شوطًا سريعا بينما ظلت هي الفتيـة المتأبية على الزمن. هكذا بدت هيئتها، رغم أنهـا تخطـت منتصف الثلاثين.

أدارت لي ظهرها. تبينت أنها ليست بـالطول الـذي كانت عليه قبل سنين. صحيح أنها حافية القدمين – هـي لا تطيق الحذاء بينما تتحرك في غرفتها-، إنما السبب في أنـي بت طويلاً. نبتت ذقني، وغلظ صوتي، في الوقت الذي خفت فيه صوتها، متحولاً إلى ما يشبه الهمس المرتفع. ثمة عطب في أوتار صوتها أخذ يستفحل.

مرت دقائق من الصمت الثقيل. ثم سمعت همسها:

"ألا يكفيك هذا الحد؟"

كانت قد رضيت أن أشاركها الكونياك وسجائرها. وأن أتمدد على سريرها، موسدا رأسي في حضنها.

انتفضت:

"أحبك. أحبك يا جليلة. "

دنت مني، ورأيت الاحمرار في البياض من عينيهـا. همست كأنما تتوسل:

"أنت صاحبي القديم. "

ثُرت:

"لست ولدا يا جليلة. لقد كبرت. "

"ليتك بقيت ولدا. "

وأشاحت عني. لكني خلت، حين سمعت نبرة همسها، أن ثمة أسي لون وجهها، وضرب بلحنه أوتار صوتها الـذي يغيب:

"النساء كثيرات... "، ثم بعد أن أخذت نفسـا عميقًـا، وربما كانت قد أدارت الأمر طويلاً في رأسها، قالت:

"أوفر لك واحدة إن كنت تريد!"

وخبطت بكفيها وركيها الوافرين بحركة من صـحت على نفسها وقد ارتكبت حماقة.

عاندت، إذ اعتقدت أنها تلين:

"أنت يا جليلة. أريدك أنت فقط. "

دارت حول نفسها كأن يدا هائلـة صـفعتها، ذاهلـة، وأسندت رأسها على الجدار. أيقنت أنها سترضـى أخيـرا. نهضت من على السرير، وسرت مقتربا منها. مددت ذراعي لأطوقها، فالتفتت تواجهني كالملسوعة. وحشرجت:

"أنت لا تفهم! حمار!"

لم أفهم شيئًا، وكان دم الأعوام السبعة عشر قـد فـار وضج في رأسي. جذبتها من كتفيها، ورحت أحاول أن أنـال شفتيها بفمي. كانت المرة الأولي التي أتصرف معها بعنـف. انزلقت مني بقدرة عجيبة، ولم أعرف كيف قفزت كـاللبوة، وفتحت باب الغرفة.

"اخرج!"

همست كالفحيح.

قالت كلمة اخرج مرة واحدة.

قالتها في ذلك اليوم القديم لمرة واحدة فقط.

وكانت عيناها جمرتين مصهورتين أحرقتا وجهي .

- ٥ -

"ناره"

سمعت مرافقي ينادي على النادل.

نظرت إليه. ضحك، وطرق بـالملقط علـى صـحن الأرجيلة النحاسي. وقال:

"انكتم نفسي بلا طائل. "، وأشار إلى جمـرات التبـغ المترمدة.

بقيت صامتًا.

جاءه النادل بالمجمرة. استبدل النار المطفأة بـأخرى جديدة. انتظر حتى جرب مرافقي أرجيلته. ثم انسحب.

رأيته كهلاً يرفع رأسه الأشيب بوقار هادئ مترفـع، ويمضي وئيدا بين الموائد.

وكانت النار تفعل فعلها.

والماء، في بطن الأرجيلة الزجاجي، يكركر مكتومـا متخبطًا خلف جدرانها الشفيفة ملونة الزخارف.

-٦-

رشفت من مرارة الكوب.

اعتدت دبقة الثقيل.

أجل:

خرجت يومذاك من غرفة جليلة.

وكان رماد آخر النهار الصيفي الحار مثل الغلالة الوسخة.

ولم تكن تلوح لي.

الحكيـــــم

ماذا يفعل هذا الرجل؟

ألا تراه؟ إنه ينتظر. ها هو يتلهى بمتابعـة انعكـاس الغيوم على زجاج خزانة الكتب. يراها تتفاش علـى شـكل نعاج ما تلبث أن تميع لتتشكل على هيئة وجه ناتئ الجبـين، أفطس الأنف. ثم تأتي غيمة أخرى لتبتلعه وتلفظه مقعدا فاقدا لظهره ولإحدى قوائمه الأربع. ألا تري ذلك؟

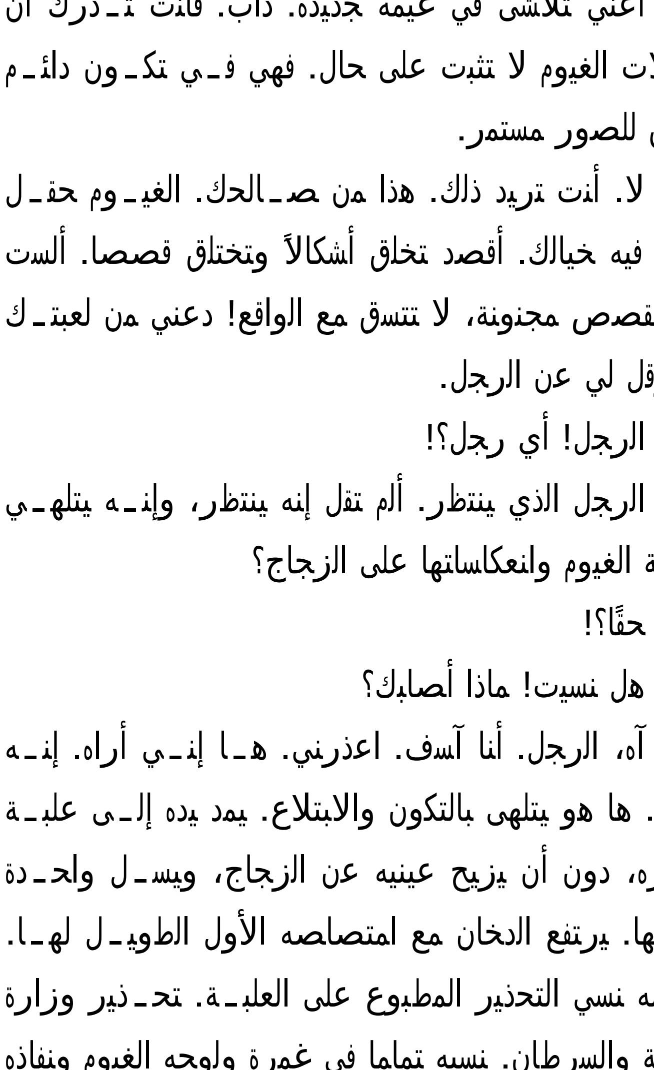
ماذا؟ مقعد بلا ظهر، ودون القائمـة الرابعـة؟ أنـت تمزح.

لست أمزح. مقعد لا ظهر له، ويقف راسخًا بلا قائمته الرابعة، ولا يترنح.

أرني إياه، إذن.

لقد ذهب.

ذهب؟!



أعني تلاشى في غيمة جديدة. ذاب. فأنت تـدرك أن تشكيلات الغيوم لا تثبت على حال. فهي فـي تكـون دائـم وتخلق للصور مستمر.

لا. أنت تريد ذلك. هذا من صـالحك. الغيـوم حقـل تزرع فيه خيالك. أقصد تخلق أشكالاً وتختلق قصصا. ألست كاتبا لقصص مجنونة، لا تتسق مع الواقع! دعني من لعبتـك هذه وقل لي عن الرجل.

الرجل! أي رجل؟!

الرجل الذي ينتظر. ألم تقل إنه ينتظر، وإنـه يتلهـي بمتابعة الغيوم وانعكاساتها على الزجاج؟

حقًا؟!

هل نسيت! ماذا أصابك؟

آه، الرجل. أنا آسف. اعذرني. هـا إنـي أراه. إنـه ينتظر. ها هو يتلهى بالتكون والابتلاع. يمد يده إلـى علبـة سجائره، دون أن يزيح عينيه عن الزجاج، ويسـل واحـدة ويشعلها. يرتفع الدخان مع امتصاصه الأول الطويـل لهـا. لابد أنه نسي التحذير المطبوع على العلبـة. تحـذير وزارة الصحة والسرطان. نسيه تماما في غمرة ولوجه الغيوم ونفاذه

للزجاج. إنه يخترق المحسوس ويدخل في انتظاره الـذي لا ينتهي إلا بتشكيل آخر. تحترق السيجارة ويلتهب فمه، لكنه لا ينتهي من الانتظار. عجبا! أهذا هو الرجل الـذي ينتظـر أم أنني أري... لا، إنه هو. الرجل الذي ينتظر، لكـن السـاعة الكبيرة معلقة على الجدار خلفه. وراء ظهره المرتاح علـى ظهر مقعد المكتب المريح. السـاعة لا تتكتـك ولا يخـرج العصفور مزقزقًا من جوفها كل ساعة. لذا؛ فقد نسي الرجل الوقت. غاص في نفسه، وغفل عن أن الباب مشرع لكل من هب ودب، أو يهب ويدب. وها أصابعه أخذت تـدب فـوق زجاج المكتب رويدا رويدا. ثم تتقوس شيئًا فشيئًا. ها بـدأت تدق بأظافرها المقلمة، المحففة؛ فلا يصدر عنها إلا الصوت الثقيل المختنق.

وماذا ترى أيضا؟

أراه يزفر ويفك ربطة عنقه الرمادية. لابد أنها تخنقه. لابد أن تنفسه ثقيل. إنني أسمعه وكأنه يصخب في صـدري. آه... لقد استراح. ها قد تقلصت عضلة زاوية فمه وأحـدثت ابتسامة.

يبتسم؟

شبه ابتسامة سريعة خاطفة. اهتزت السيجارة بين شفتيه، فسقط رمادها فوق الطاولة. تذكرها قبل أن تلسعه. أعني قبل أن تلسع شفته؛ فنزعها ليسحقها في المنفضة ثقيلة الزجاج. لكنه عبس وقلص جلدة جبينه. ماذا؟..إنه يمسح شيئًا دبق على شفته. ينظر إلى أثره على طرف إصبعه. دعني أرى. ما هذا..آه! إنه دم. ولكن من أين جاء! تلفت، ثم تذكر شيئًا؛ فنظر إلى المنفضة مادا أصابعه ملتقطًا عقب السيجارة الأخيرة. قربه من عينيه وتأكد. كان عليه مسحة دم قليل. رماه في السلة تحت طاولة المكتب. لم يسمع صوت ارتطام قطنته الجافة بالورق الأبيض، الممزق، الذي ملأ نصف السلة بنية اللون. لعق بلسانه شفته المدماة، التي سلختها قطنة السيجارة لما نزعها، دابقة، قبل أن تلسعه.

لابد إن ريقه جاف.

لابد. إن الجو خانق وحار. ماذا يقولون عنه؟ مقبض؟ أجل، إن الجو مقبض وأراه. ها إني أراه في الزجاج الموضوع فوق طاولة المكتب، يمسح بظهر يده حبات العرق التي تجمعت بين ذقنه وشفته السفلي.

لقد تعرق.

نعم، لقد تعرق. غير أنه مل لعبة الغيوم وخرج مـن استغراقه فيها. أشاح بعينيه عن زجاج خزانة الكتـب، وراح يحدق بالهاتف الأبيض على يمينه.

إذن هو ينتظر مكالمة.

إنه ينتظرها.

مكالمة هامة؟

لابد.

تُري عما ستكون المكالمة؟

ليس مهما.

وما أدرك؟

إني..إني أجتهد.

تجتهد أم تعرف؟

أعرف أنه ينتظر. وأعرف أنه كان يتلهي بمتابعة لعبة الغيوم وما تشكله على زجاج الخزانة. وأعرف أنه يعـرف ويدرك أنه إنما يتلهى ويهرب من خوفه إلى طراوة الغيـوم، وإلى قدرتها على محو الذي تشكل لتشكل مـا هـو أجمـل وأفضل.

لكنك لم تقل لي مما يخاف.

المكالمة.

إذن، فإن أمرها مهم.

أجل.

لكنك قلت أن هذا ليس مهما.

أجل، أجل، أجل... وماذا تريد أيضا؟ اغـرب عـن وجهي .

ما بالك غضبت؟! إني أسألك. ألست أنت الذي تـراه؟ إذن؛ قل لي ماذا تري، وانس الملاحظة الأخيرة ما دامت قد أغضبتك.

لم تأت.

من... المكالمة؟

أجل. وها هو يقف ويأخذ بالسير البطيء بين طاولـة المكتب والباب المشرع. إنه يسير بينهما داسا يديه في جيبي بنطاله. يسير وقد أخرجهما وطفق يطقطق بأصابعه ويفركها. إنه لا يدري ماذا يصنع بأصابعه. مر أمام الخزانة. توقـف. مرر إبهامه فوق ولادة تشكيل غيمي ومحاه. رفع إبهامه عن الزجاج ونفخ عليه. تشكلت مساحة من الغبش الرقيـق. مـد إبهامه. حار قليلاً. ثم شكل وجها سريعا قبـل أن يتلاشـى

الغبش. نظر إلى الوجه، فألفاه يضـيع وتختفـي خطوطـه المرتجلة في الزجاج المتغيم. غامت روحه وانخطف وجهـه نحو الهاتف. حدث نفسه: أيتها السلحفاة الميتة! أيتها السلحفاة الصامتة! أيتها السلحفاة التي لا تأتي ولا تروح! ثم وجد نفسه يراوح في نقطته كأنما يتأرجح وقد فقد توازنه. وأتبع: أيتهـا السلحفاة يا نقطة التوازن! وجـه نظـره صـوب الهـاتف. استدعى صوتها وما حمل إليه من كلماتها: "ألسـت متطفلـة عليك؟ أرجو ألا أكون سخيفة. ". ثـم تـذكر رده المـوجز: "لست كذلك. أبدا. ".

كان يستند بمرفقه الأيسر على حافة الخزانات، بينمـا تجمع رأسه المحموم في أصابع يده اليمني. مكث هكذا بـلا حراك. ثم ولدت تلك الانتفاضة الجوانية التي حركت رمـاد الروح، ونفخت فيه أجيج عذاب غير مفهوم. تـأوه، وحـرر رأسه من أصابعه الخمسة. فتح عينيه فكانت الصورة أمامه. خلف الزجاج، تنظر إليه بوجهها المشرب بالصفرة الباهتـة. هادئة، ساكنة، مطمئنة، ثابتة خلف الزجـاج. أمامـه وفـي انحراف عينيها، مهما غير موقعه، نظرة متأنية إليه.

"لست أنت": هتف في داخله. "لسـت أنـت، يـا ذات الشعر الواهن المتهدل كستارة لاكها الزمن والغبـار. لسـت أنت، مهما خادعت بابتسامتك، أو حاولت إغـراء أو فتنـة بكشف نحرك لي وربوة صدرك. عنقك مظلل بعتمة كاذبة لن تلهيني عن انتظارها. سوف تأتي. ها إني أقـول لـك إنهـا ستأتي. لن تقوى على تأجيلها بيـديك المسـتريحتين فـوق بعضهما في حضنك. أصابعك مريضة وقواك ذابلة مثلما هي ابتسامتك. هل تسمعين؟ ها إني أراها تـنهض فـي البعيـد وتقترب من الهاتف. هي ليست مثلك جامدة لا تتحرك. ليست أسيرة الإطار المذهب. سوف تخرج من غيابها وتدخل فـي الحضور. ستدير الرقم. أتسمعين؟ أقول لك إنها سوف تـدير الرقم. أرى أصابعها التـي لا أعرفهـا تمسـك بالسـماعة. أصابعها الراعشة رعشة توقع التلاذذ لملمس الدفء البشـري الحي. الباعثة بحة الشوق إلى لقاء سوف يـأتي وإن خشـي الانكسار. أرى زندها الذي لم ألمسه يمتد باتجاهي . زنـدها الحر من سجن القمـاش المتغضـن. الـذاهب إلـى رغـم المسافات. الممتد نحوي ليكتشـفني وأكتشـفه. أري رجفـة خاصرتها التي لم أطرقها أبدا، بينما هـي تسـتدير محدقـة

بالرقم الأخير. سوف تأتي. ها إني أقول لك رغم أنـي لـم أرها. ولا أعرفها. ولست تواقًا إلى سماع مـا سـتقول. أي شيء. أي كلام. ستقول. ليس مهما ما الذي سـتقوله. لـيس مهما كم ستستغرق حتى تقوله. لكنها ستقول. هذا هو المهم. لكنها ستزرع في هذه السلحفاة الميتة، الصـامتة، الكسـيحة، نبض روحها. ستنفخ في نفس التوازن. أتسمعين؟ أتسمعين؟ أتسمعـ.."

أتحدثني!..

أنت لست الموناليزا. أنا لا أحدثك. هي مجرد موناليزا بليدة.

وأنت؟

إني أنا. وأنت تعرف هذا وتراه.

أجل. إني أعرفك وأراك تنتظر طوال الوقت. تنتظـر متلهيا بمتابعة ومطاردة انعكاس الغيوم على زجـاج خزانـة الكتب. تراها تنفلش على شكل نعاج ما تلبث أن تميع لتتشكل على هيئة وجه جميل الجبين. دقيق الأنف. متورد الوجنتين. بشفتين متشربتين زهرة الحلم، وشعر يـرف عليـك مثـل جناحين ممتدين لنورس أبيض يحلق فـي روحـك. يكسـر

أقفاص سجنك اليومي، الذي أحكت إغلاقه عليك، لتبقى أمام الورقة. ماذا ستمنحك الورقة؟ ماذا ستمنح الورقة غير تسويد بياضها بسوادك؟ تتلهى بخزانة الكتب وبغيومها الكاذبة التي تسخر منك بتشكيلاتها المتوالدة أبدا، غير المتحققة أبدا.

أجل. إني أعرفك وأعرف أنك تنتظر الصوت ليهتـف لك للمرة الثانية.

تنتظر، وتأمل في أنه سيهتف لك ثانية. لا أسـتغرب منك ذلك. لقد هتفت بصوتها، وسألتك:

- كيف تمضي الوقت؟

فأجبتها:

- كبقية الوقت.

فسألت:

- كيف؟

- انتظام مكرور يأكل اليوم ليبدأ الآخر.

فاندهشت:

- أنت هكذا؟!

فانتبهت إلى صدمتها فيك. وصدمت على تنبهك إلى ما صرت عليه. فصمت.

لكنها لم تكتف، بل قالت ما أرعش فيك الروح التـي خلتها انطفأت وذوت:

- ألا تسافر؟ أنا أحب السفر. ألست غجريا. .؟

فقلت لها إنك تفعل إذا ما تيسرت لـك الفـرص، وإذا باتت الأمور تسير وفقًا لما تتمناه نفسك، وفي حالـة تحقـق الموضوعي بانسجام مع الذاتي. أنت تعرف: لقد بسطت لهـا سجادة فهمك الجاد للحياة الوقورة، والنمط المحـافظ علـى قوانينها المتأصلة، وأنت إذ وضعت يديك علـى كـل هـذا فإنك...

لماذا تضحك؟! أكمل. ماذا حدث؟

أضحك لأنك شخت باكرا وبت حكيما يا صاحبي. ألا تعرف ماذا حدث؟ لقد أنهت الحديث وغابت.

لماذا؟

لأنك لست غجريا يا حكيم.

لكنها قالت أنها ستهاتف.

هي فيك الآن. فلا تنتظر ما هو حاضر.

يا لك من حكيم أنت أيضا.

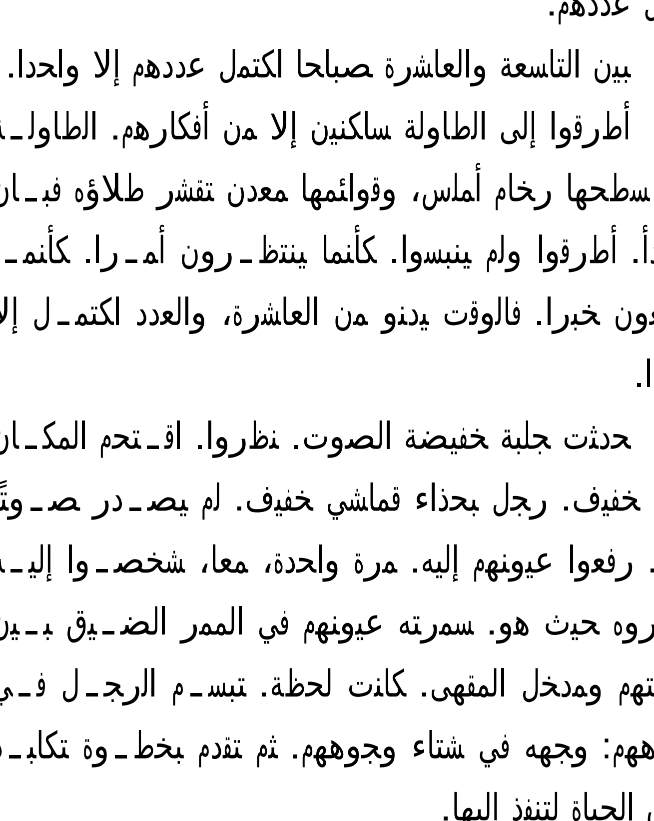
اغفر لي ضحكتي، وسامحني رغم إحساسي بالمرارة في حلقك.

يا للمهزلة! وتحس حتى بالمرارة التي في حلقي؟!

أجل. لم لا أكون لصيقًا بك إلى هذا الحد؟ لا تستغرب؛ فكلانا ينتظر ويتلهي بالغيوم. يكتب القصص المجنونة غير المتسقة مع الواقع تلو القصص المحلوم بها، حتى تعيد اتصالها. فلا تكن عندئذ حكيما. أتسمع؟ إن فعلت وأعادت الاتصال فلا تكن حكيما. أتعدني؟

إذن، فلنضع النقطة الأخيرة. ولندع الباب مشرعا.

قطاف



كان الوقت في المنتصف بين التاسعة والعاشرة عندما اكتمل عددهم.

بين التاسعة والعاشرة صباحا اكتمل عددهم إلا واحدا.

أطرقوا إلى الطاولة ساكنين إلا من أفكارهم. الطاولة التي سطحها رخام أملس، وقوائمها معدن تقشر طلاؤه فبان الصدأ. أطرقوا ولم ينبسوا. كأنما ينتظرون أمرا. كأنما يتوقعون خبرا. فالوقت يدنو من العاشرة، والعدد اكتمل إلا واحدا.

حدثت جلبة خفيضة الصوت. نظروا. اقتحم المكان حذاء خفيف. رجل بحذاء قماشي خفيف. لم يصدر صوتًا ثقيلاً. رفعوا عيونهم إليه. مرة واحدة، معا، شخصوا إليه وسمروه حيث هو. سمرته عيونهم في الممر الضيق بين طاولتهم ومدخل المقهى. كانت لحظة. تبسم الرجل في وجوههم: وجهه في شتاء وجوههم. ثم تقدم بخطوة تكابد ضيق الحياة لتنفذ إليها.

مد يده فتناول أحدهم الجريدة. تناولها وفردها بأصابع ترتجف. طقطق الورق طقطقته الأليفة، وتراجعت رؤوسـهم إلى الوراء لتتفادى حوافها الناخزة. فردها وتابعته عيـونهم. تراجع الرجل ذو الحذاء القماشي الخفيف خطوة، ورصدتهم عيناه. استقرت الجريدة مفتوحة علـى الصـفحة اليوميـة. الصفحة التي لا تموت. تلك التي لا تمـوت أبـدا. طـالعهم الخبز طازجا فلسعهم كقهوتهم الصباحية. حبر الخبر أسـود طازج فلوث بضع كلمات جاورتـه. لـوث أصـابع اشـتد ارتجافها.

مات!

قال الخبز هذا بالحبر الأسود، فلم ينظروا في عيـون بعضهم، وأوغلوا في خوفهم الذي استجد.

كان سطح الرخام القديم رطبا. أحسته أيديهم كذلك.

خبأ بائع الجرائد اليومي دمعته. رمش ومشي، متأبطًا رزمة جرائده، بين الطاولات الفارغـة البيضـاء الرخاميـة المرصوفة المتوالية المتوازية النظيفة في صباح خريفي..ولم تصدح موسيقي!

كان الخريف في صباحه الكابي.

أما الوقت؛ فقد عانق العاشرة.

***

انتصف النهار وشرع بدورته الثانية.

والريح المارقة في المسافات الصغيرة بين المنازل توحش الروح، وتلقي على البدن أثقالاً جديدة. يبس الجلد للمرة العاشرة، ربما، أو للمرة الأكثر. والمقعد بوسائده عند الظهر ما زال هو هو. في المكان الذي يواجه العالم من خلف زجاج. العالم البارد المتروك في الخارج وحده.

لا أحد.

لا أحد يجول في المنزل. فلقيلولة الشتاء الهابط ملذاتها الفريدة. السكون. وتخلخل الشجر المهجور من أوراقه. ونقرات الأصابع المرتجفة على خشب المقعد الرابض بين النور والعتمة. في ظل العمر وإجهاد القلق ما يزال رابضا. تنقر الأصابع على الخشب فينكسر السكون. ينكسر السكون للنقرة تلو النقرة، ثم يلتئم، فيفيض عميقًا كالسر الصائح. تتوقف الأصابع شيء يأمرها. خاطر مر في البال..وتتشعب مرتجفة أمام العينين المتفرستين: لا شيء ينسي أبدا. ترسبت آثار الحبر في أخاديد الجلد الناشف. لا، لا شيء ينسي.

فالماء عند الغسل – فكر الرجل – لا يحيي الذي مضى فـي موته. أبدا. لا يمحي الموت بالماء إنما – غـص الرجـل – يعلن عن ميقاته الذي لا يحيد.

والنوم لا يحيد. يعرف الذي يقوده دربه إليهم. يـأتيهم بالغبطة التي ينتظرون، فيريح رقدتهم، ويقبل هسيس السبات على شفاههم وجفونهم. النوم لا يحيد. هكـذا هـو. يخلـف الرجل في مقعده ويجتازه دون أن يلتفت. لا يأبـه لنقـرات أصابعه على خشب المسندين. الأصابع التي لوثها حبر جاء من جريدة. الجريدة التي طقطقت فوق رخام رطب. الرخـام الذي جمع هشاشة أبدان الرجال حوله ليقرأوا خبرا (ينقـبض الرجل لصورة الرخام) يفسر غياب غائبهم.

ترقد الأصابع على المسندين، وتتلامس الركبتان تحت عباءة المنزل الصوفية. يؤكد الاحتكـاك السـكون مجـددا. يحضر العالم دالفًا من النافذة المقابلة. السماء الخريفية أولاً، حزنها الموسمي، الشرفات المهجورة، والشـجر المسـتأنس بالرجل مبددا وحشته ولو إلى حين. يدلف ناصـبا أغصـانه المتفرعة العارية كأنما يرجو بعض دفء..

لكن تشابك الأذرع المتيبسة يفعـل فعلـه؛ إذ يسـتقدم الزمن المحبوس بين طيات جريدة الصـباح: كـان المكـان صمتًا ملتصقًا بالجدران اللامعة، والصور المنسوخة المؤطرة بزيف لون الذهب، ووجه النادل المغلق على حزنـه. كـان الصمت يئن تحت أحذيتهم الهارسة لطبقـة النخالـة فـوق البلاط. وكان الصمت، أيضا، سيد الجميع حتى أنه أخـرس المذياع بمذيعه، وإزعاج أغانيه، وأخباره المنشورة على برد النهارات في كل أيام السنة. لم ينسبوا؛ إنما فاضـوا بـإرادة الاستسلام للشيء الذي يتوقعونه دائما. الذي يخافونه مجددا. الحاضر بينهم رغم غيابه. الجامع لشملهم ولو فـي نفثـات أنفاسهم المكابرة يؤجلونه..أو يحاولون.

قال أحدهم ضاحكًا، بعد أن تعبوا من الصمت، وكـان أكثرهم كآبة: "إنه الشتاء. موسم قطاف أمثالنا. "

وغرق في كآبته من جديد.

يتقدم الزمن ويبتعد الشجر.

"إنه انتظار": تيقن الرجل من حاله. "أجل. هو هكـذا أبدا. هذا الوقت الذي يدب بطيئًا..متعثرا..هامدا، ليقف فـي وجهي كالكساح. متي ينهض ليمد لي يده؟ ينظر في عينـي

فأفهم مراده فأقوم؟ متي؟ هذا العذاب دون وجع متي ينتهـي؟ صوت البيت النائم هو أكثر من ضجيج. أكثر إرنانًـا مـن زلزلة الأرض. إنه يصم أذني المتيقظتين لقدوم الآتي الذي لا يري. إنه يفرغ فيهما الصمت الآكل للحجر. تلتقط الشعيرات البيضاء عند مدخلي أذني أصواتًا لا ترحم. تزحف إلى مـن كل الأركان. تزحف نحوي..صوبي..إلي، لكنها لا تصـل! دائما. لا تصل. أبدا. تزحف فأترقبها أن تدخل حجرتي باهتة الضوء. أن تقترب من مقعدي الخشبي الرابض في العتمة. لا ضوء. فالفجر مسبوق بالليل منذ الخليقة. لكن عيني تخلقـان منظوراتهما. هي العادة. التعود. ألفة المكان المضجر. الألفة التي شاخت الألفة فيها. الألفة التي ألفتني حتى الملل... ".

..واحتج: "لماذا هذه الإطالة؟"

***

في يوم مضى لم يعد يذكر تاريخه (كل أيامه واحدة)، قام الرجل من مقعده الخشبي، وتحرك باتجاه السرير. بغتـه شعور لأن يغادر ذاك المقعد. نهض على قدميه اللتـين مـا زالتا تستطيعان حمله. تريث قليلاً. جال بصره في الأشـياء كأنما يودعها. ثم اهتز منقلاً خطواته إليه.

كان متيقنًا أن الشيء قد أزف. وكان قابلاً لـه. تمـدد على ظهره وحدق في السقف منتظرا. تسرب وقت. والسقف فوقه غارق في عتمته الساكنة. لم يهبط منه الشيء. لم يدخل من النافذة. لم يخرج من الحائط. لـم ينسـل مـن أصـابع القدمين! تململ حينذاك، وزفر متأرجحا بـين يـأس وظـل رجاء:

"ترى، هل سيكون الغد حاضرا، أم هو السرير يخاص من خشبه ليدخل في صمت التراب؟"

..ولم يجبه أحد.

***

انقصف النهار، والعمر مشدود نحـو عـذاب بقيتـه الصعبة. ما عاد في السماء من نور. انطفأ النهـار بـاكرا، والرجل يمكث في الوقت الإضـافي، علـى مقعـده، ومـن الأرض أسفل قدميه يصعد الصقيع.

أخذته رجفة. حار إن كانت من البرد أم هـي إشـارة الميقات. تجمد في مكانه بين المسندين. تحسسـت أصـابعه الخشب وتمسكت به. بدا مثلما المسافر ضاغطًا جسمه فـي المقعد حتى تقوم الطائرة. ثمة الصوت ينبعث ويتخلله عبـر

شرايينه، ثم يصب في قلبه خفقة خفقة. تراءى له أنه يشـهل الفصل الأخير. تهيأ لذلك إذ نشطت حواسه. سيأتي الشـيء إذن. حانت ساعته الآن. أغلق عينيه وطفق ينتظر. إنه ينتظر منذ زمن. لا. لن يخطئ هذه المرة. سيكون الموعد الـذي لا يطيش. سيهدأ منذ الآن وإلي الأبد. سينتهي العذاب بلا وجع. والسكون بلا سكينة. إنها رحلة الراحة الدائمة. يتزايد الصقيع تحته ويتسلق إلى عظام ساقيه، ويمتد في حوضه الأعجـف، ويصعد نحو بطنه الهضيم المرتعش. إذن؛ سـوف أري. لا شيء يضاهيه هنا. عالم آخر مختلف. ما عاد من جديد أراه. هنا لا جديد. القديم الثقيل الممل عمري هـذا الجسـد الـذي كرهته وقرفته لا أقدر أن أخلعه عني لأنطلـق فـي أراض مغايرة لا خبر فيها انتظار ولا ضعف ولا همود ولا مفاجأة. غدا سأكون أنا المفاجأة. سيصـمتون وسـيخافون دورتهـم الآتية. أنا من سينقص العدد. أنا الرقم الناقص الذي خرج من زمانهم وغادر الجدران المكسوة بالطلاء الزيتـي والأرض المرشوشة بنخالة الخشب. إنه موعدي مـع الجريـدة فـي الصفحة المقروءة جيدا. إنه موعدهم معي حين أتأخر طويلاً طويلاً وأغيب. أجل. غدا. هو غدي أنا....

أنشب أظافره في خشب المسندين، وكان صلدا، فأوجعه. تساءل إن كان هذا في الحاضر..أم هي ذكرى الماضي الأرضي. لكن الصقيع وصل إلى ظهره وكتفيه. برد الليالي الطويلة. برد الشتاء الذي يخافه. وصوت الخفقان المنبعث ما يزال يضرب في قلبه ثم يعود ليضخ في أوردته وشرايينه.

فتح عينيه مترددا. تخللهما ضوء باهت. صدم، وعاد ليغلقهما بإصرار. التقطت شعيرات أذنيه حفيفًا كأنه خفق أجنحة بعيدة. تعزز أمل بهت منذ قليل. الملاك! إنه الملاك. واصلت الأجنحة خفقانها وواصل الرجل انتظاره المتلهف. لم يصل أحد. لم يأت من يمد له يديه. لم يصدق! ما كان قادرا على احتمال ما رأى...

كانت ستارة النافذة المشرعة قليلاً، مثلما القلع المنفوخ، تتطاير حوافها وتضرب مفرش الطاولة القريبة.

وكان الفجر يرسل شعاعه الخريفي الكابي.

وكانت أصابع الرجل، التي ما زال الحبر في أخاديـد جلدها اليابس، تمارس حركة الاستجابة لشيء لم يطاق صفير الرحيل بعد.

لم يأت أحد.

والمقعد في مكانه، بين النور والعتمة، ما يزال.

القسم الرابع

الدم الأول

ساندريللا

الدم الأول

باسمك قالوا: فليفن هذا الابن العاق.

هذا الراغب أن يصبح صنوك في المجـد

الباق.

ففنوا فيه

وتأبد فيهم

عاش الإنسان نزوعا في الإنسان ومـاتوا

في حفرة

كفيه وسكتة عينيه.

"بلند الحيدري"

قلّب الراوي صفحات كتابه، ثم عاد بها، وقال:

يحكي أن...

أن ماذا؟

أن الرب صرخ في الرجل النـائم، فـدوى الصـوت مشتعلاً باللهب، واحمرت السماء فوق رأسه المتوج بشـعرٍ جعدي. كانت صرخة الرب الأولى، وكان الخوف الأول.

"أين هابيل أخوك؟...."

في الأرض تحت التراب، أو عند صخرة متوارية ينام في الأبد. هو لا يعرف أين صار الآن. بعيدا بعيدا لا ثغـاء من غنم يهتف به، لا، ولا قرابين وأضاحي طازجة تهم ببدنه إلى حركة. الحركة والسكون ضدان، وهو إلى جانب أحدهما ليكون الآخر في جسد أخيه. تحرك هـو وابتعـد، فلاحقـه الرب. ابتعد هو وابتعد، لكن الرب بالصوت المشتعل أوصد المكان؛ فلا رؤية لغنم أو تبصر لنبات مورق. مـن خوفـه راوح حول نفسه ووقف. ومن رجفة ساقيه الخضراوين كبت به ركبتاه، فأطلق الآه غب الفصد.

بساقين خضراوين؟

الماء حياة. وكل ما هو حي يجري بين يديه أخضـر. تورق الحياة في بدنه قبل تكشف الشمس فيسابقها إلى الحقل، ويسبقها. تتعفر قدماه بالتراب المقلـوب، فتتـداخل أظـافره وحباته الندية. صوت الماء يأتيه همسا كالسـر فـي قلـب الأخضر لا يغشاه. يعرفه؛ فهو من جاء به، وحفر لجريانـه خندقًا يتوزع منه ويصب في آخره. كان هـو الـذي مسـه الأخضر في النسغ بنسغه فأعطاه اللون.

وكان تحول.

رقعة على جسد الجدب المبقع بيابس النبـت انبثقـت، وهو منها. فيها بين ظلالها يسكب من كعبه ماء فتمسك بـه، وتمنحه بكارتها. حبلت منه، على عطـش، وغمـرت مـن رحمها وجه الأرض نبتًا طريا؛ فدخل الفرح. صار للصـبح طعم، ولقيظ الظهر ظل، ولليل الخليقة هسيس ريح تبعث في أخضر الساقين نعاسا ذا فرادة!

كان للعيش رتابة،

وصار للعيش انعطاف.

وأين هابيل أيها الراوي؟

في الأرض تحت التراب، أو عند صخرة متوارية ينام في الأبد.

أين كان؟

من جلد ما يرعى كسا بدنه، ومن لحمها غـذاه حتـى ترهل لحم صدره مثل فائض أثقل عليه. عند التخوم الخضر يجعل من عليقة صفراء متكئا، ويذهب بعينيه حتـى مـدى الثغاء ورماديته. بين أصابعه شتل – من الرقعة الخضـراء جاء به-، وفي فمه يلوك البقية. يتذوقها. يتـذوق العصـارة الخضراء ويستعذب مرها. تمر أمام عينيه ظهـور مكتنـزة تدب، برؤوس تحاذي الأرض تدب، بكسل يسـتعظم كسـله يدب. يقضم ثانية ويأخذ العصارة إليه، وفي عينيـه ترعـى الغنم. يقضم ثالثة وفي فمه تتشابه العصارة والعرق. ينظـر قابيل في الأخضر فيراه يغسل الأخضر منه بالعرق. يعرف هابيل أن المتشابهين في قابيل واحد، وأنه وأخاه اثنان.

قال، وقد سمع غنمة تثغو: "أنا هابيل الراعي!"

وقال، وقد شخص إلى تفصد العرق من أخيه: "قابيـل هو الأخضر. وهو ليس أنا. "

... وساق غنمه إلى الرقعة الخضراء، فعرفت مرارة العصارة، وتعلمت رعي العرق.

صاح قابيل:

"إنه زرعي، فاكفف غنمك عنه!"

تمطي هابيل عند العليقة الصفراء. صـفر لغنمـه أن يدخلوا الزرع، ونهض كبشري هائل:

"الأرض ملك الرب، وهو صاحبها"

فانتفض قابيل إلى تخومه، ولمع تحت الشمس:

"الرب خلق الأرض، وأنا زارعها!"

هل اختلفا أيها الراوي؟

إلي أبيهما توجها فأفتي بأن الشيء مشاع للكل. لم يكن ما قاله حلا، فأرضى أحدهما وغـبن الآخـر. وقـع الحـد واستدارت الظهور إلى بعضها. ما كان الرب حاضرا، وآدم خاف الحكمة عند شجرة التفاح، وتبع امرأته إلى الجدب.

والأخضر؟

كان ابتداء جديدا لهابيل الرعي.

كان تحولاً.

كان اختلاقًا.

ظل بماء الكعب يمنح النسغ، وبالماء السـر يعطـي حياة. وإذا الحد شطر بين اثنين متلازمين على ضد، كشـتاء يعمر الأرض وخريف يقحلها، فإن قابيـل الأخضـر جـاء بالأخضر، إثر هابيل الرعي المكتفي بجذب نبـت الجـدب والثغاء.

تفجرت من الأرض ينابيعها فغسلت وجهها الأغبـر، واتسعت الرقعة. ذاقت الأغنام عصارة الأخضر، فرتعت فيها وزادت سمانها لدى هابيل الهائل. كبر الحد بـين الأخـوين، وآدم سادر مع امرأته خلف الذكرى: يتوق إلى الجنة الغائبة ويندم على الفعل. سمان الأغنام ترعى العـرق والعصـارة فيصفر الحقل. كساء هابيل يتجدد على بدنه طازجـا بالـدم. مسارب العرق في قابيل الماء تحفر مجراها؛ فيصرخ:

"إنه زرعي. فأين عيون الرب!!"

يرد عليه أبوه، وقد تطير من القول، منذرا إياه ببـئس المصير:

"إنها النار ما تصرخ به!! إنه السـعير مـا سـتجني! فارتدع!"

يخب في زرعه إلى أوله، ويجابههم وقد لوح وتصالب كفزاعة سمراء مضيئة:

"ذلكما أنتما. ما كانتا إلا بكما... "،

ثم أشار إلى جلده الملوح، وهتف:

"إنني أحترق يا أبتي. ألا ترى؟"

ما قاله قابيل تجديف، أيها الراوي!

دنس حل بالأرض لوث بركتها الأولى حين لفظ قابيل كلماته. آمن آدم بهذا، وغطى وجهه بكفيه، ثم استعاذ برحمة الرب، رب الكون والخليقة. "ستجازى على شر ما اقترفـت يداك"، قال آدم وبكى. "اذهب. اذهب عني ونـل قصاصـك وحدك. ما من شيء يغفر لك فعلتك! ما من عمل يزيح عنك جرمك! ابتعد يا قابيل بوجهك عن وجهي . لا تُرني إياه قبل المغفرة. لن تهرب من وجه الرب أيها الزارع. لن تفلت من القصاص. ستبقى مطرودا/ مطاردا أبد الدهر. هذه لعنة!!"

وماذا فعل الأخضر أيها الراوي؟

بكى قابيل لخوف أبيه وأصابه ذهول. ما كان ليصدق ما سمع وما رأى. جاب بعينيه رحابة السـماء، وفـي قلبـه ولدت شكوى. عاد إلى أبيه وبقبضتيه دق صدره:

"لكنه زرعي! غنم أخي تسمن في خضرته، وأنا مـن يسكب فيه الماء. "

أشاح آدم بوجهه، وقال:

"الماء هو الحياة. الماء من صنع الرب. "

أجاب قابيل معذبا:

"وأنا من أتي به فتجلي في الأخضر والعصارة...

أنا من قلب ظهر الأرض فأعطت لونها والظل...

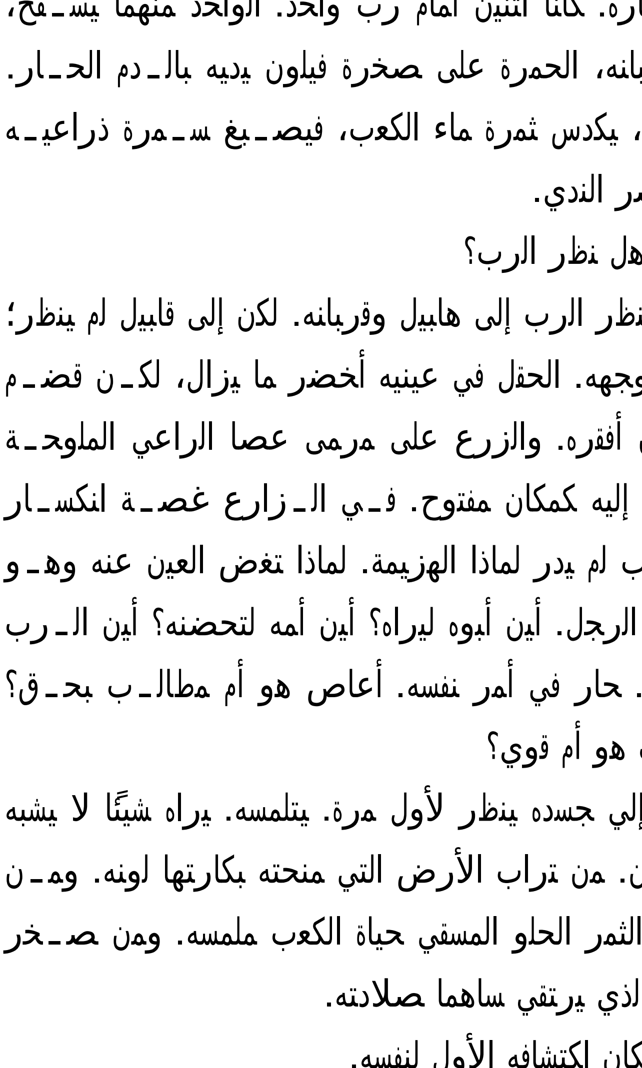
يا أبتي، هذا عذاب!"

عذاب مقيم كان يستعر في قلب قابيل. زرعه يقضـم فتسمن أغنام أخيه. عرقه يرشح في الأرض، فيترهل بـدون قابيل. من حوله خلاء كبير ولا مسرب. في الأعلـى سـماء أغلقت بواباتها دون أهله بعد الخطيئة. وأهلـه دونـه فـي السكون والرتابة يقطنون. الحركة له. العـرق لـه. النسـغ والأخضر له. ويشير عليه آدم:

"اذهب وأخوك، وقدما للرب لتريا ما هو صانع. "

هل فعل؟

"مما يملك، اصطفى هابيل سمان غنمـه وأبكارهـا. وحيث الثمر الذي زرع، جمع قابيل مـن حقلـه الأخضـر



والعصارة. كانا اثنين أمام رب واحد. الواحد منهما يسفح، من قربانه، الحمرة على صخرة فيلون يديه بالدم الحار. والثاني، يكدس ثمرة ماء الكعب، فيصبغ سمرة ذراعيه بالأخضر الندي.

هل نظر الرب؟

نظر الرب إلى هابيل وقربانه. لكن إلى قابيل لم ينظر؛ فسقط وجهه. الحقل في عينيه أخضر ما يزال، لكن قضم الأسنان أفقره. والزرع على مرمى عصا الراعي الملوحة للأغنام إليه كمكان مفتوح. في الزارع غصة انكسار كمحارب لم يدر لماذا الهزيمة. لماذا تغض العين عنه وهو الرجل الرجل. أين أبوه ليراه؟ أين أمه لتحضنه؟ أين الرب ليفسر؟. حار في أمر نفسه. أعاص هو أم مطالب بحق؟ ضعيف هو أم قوي؟

إلي جسده ينظر لأول مرة. يتلمسه. يراه شيئًا لا يشبه الآخرين. من تراب الأرض التي منحته بكارتها لونه. ومن خشب الثمر الحلو المسقي حياة الكعب ملمسه. ومن صخر الجبل الذي يرتقي ساهما صلادته.

كان اكتشافه الأول لنفسه.

لكن إلى لون عينيه، تلك اللحظـة، لـم ينظـر ولـم يكتشف. كانتا شمسا غاربة. وكانتا شمسا مشـرقة. وبينهمـا كان الجبل يرقى ويذوب في السماء.

أي جبل أيها الراوي؟

كان "قاسيون" يرقى، وكان قابيل إلى نهايتـه الذائبـة وعليه يرقى. ساقاه الخضراوان ترفعانه بخفة الأيل، فتصغر الأرض من تحته، وينأى العالم. صار في الهـواء صـوت وبرودة. وحدث في قابيل تميز وتوحد مع الحجر، والشوك، والشجر المنتصب. ساقاه الخضراوان ترفعانه أكثر، فيرقـى أكثر، ويلامسه في الكتف جناح طائر كالخطف غاص فـي المنحدر. مرت غيمة من أعلى، حاذته ولبست جسـده فغـام فيها، ثم تلاشت. شخص إلى ما فوق رأسه فكان رماد يحلق بصوت الهواء. هبط بنظره إلى الأرض فأبصر رماد أخيـه، خيطًا طويلاً يدخل في الزرع فيكشف عورته. سـقط قلبـه وابتعد هو في الأعلى. "قاسيون" يناديـه بصـوت الهـواء. فيرتفع إليه ولسانه يمسك عن النطق بلغة القلب:

"أنا قابيل.."

الرب ما قال الكلمة التي تروي الـزارع، كمـا روى الزارع عطش الأرض، فباح اللسان قرب العتمة:

"أنا قابيل.."

وسمع الأخضر صوتًا قريبا يناديه، وما أبصره:

"أنا هابيل... ".

فهم إليه فاردا ذراعيه على طولهما، كطائر ينخفض:

"لماذا يا هابيل؟ لماذا يا هابيل؟ لماذا...."

ودخل إليه في الغيمة، فهبطت غيمة، وتداخلا فيهـا، فغلتهما أخرى، وصار رعد، وانسكب الدم، فسقط المطر.

وإثر المطر أيها الراوي؟

في "قاسيون" العتمة تسلط البرد على جسد الساقين. نام في الغيم الرماد، وفي نفس ذاب الغيظ. حلق كالغيم أعلى من الغيم ورأى الأشياء. رأى كساء هابيل طازجـا بالـدم. رأى أغنام هابيل ترتع في الأخضر والعصارة والعـرق؛ فتأخـذ الدم. رأى المقضوم بين أسنانها يسـري فيهـا كالـدم. رأى قربان هابيل المحـزوز يطفـح بالـدم. رأى يـدي هابيـل مغموستين بالدم. لكن شيئًا عن نفسه لم ير. فجـاءه صـوت الرب داويا مشتعلاً باللهب، فصحا:

"أين هابيل أخوك؟"

فقال:

"لا أعلم. أحارس أنا لأخي؟"

فتابع الدوي:

"ماذا فعلت؟ صوت أخيك صارخ إلى من الأرض.

فالآن ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يديك. تائها وهاربا تكون في الأرض.."

وبعد ذلك؟

خرج الأخضر من لدن الرب وسكن في أرض نـود شرقي عدن. وعرف امرأته فحبلت وولدت حنـوك. وكـان الأخضر يبني مدينة، فدعاها باسم ابنه حنوك. وولد لحنـوك عيراد. وعيراد ولد محويائيل. ومحويائيل ولد...

ذلك مكتوب أيها الراوي.

لكن الشيء الذي لم يكتب، والذي لم ينسـه أخضـر الساقين، ما قاله أبوه عند تساؤله الأول عن عيون الرب....

وماذا قال آدم؟

قال إن الزارع سيبقي مطرودا/ مطاردا أبد الدهر.

لكنه ما عاد زارعا. صار بانيا أيها الراوي.

ذاك مكتوب كما تعلمون.

واللعنة؟ احك لنا عن اللعنة أيها الراوي.

ماذا عن اللعنة؟

هل زالت؟

انظروا إلى أنفسكم. منكم من...

انتظروا طويلاً كي يكمل. لكن الراوي أغلق كتابـه،

وشاركهم الصمت ممسكًا عن الكلام.

ساندريللا

تلكما العينان (مجوفتان)

تتبعانك. تتبعانك،

أنت لا تستطيع الفرار،

غادر.

تنكر.

إنهما تريانك، تعريانك.

مسجلتين

آلاف الإيماءات عديمة المعنى
على السكون الكبير.

"يانيس ريتسوس"

قال الراوي:

يحكي أن...

أن ماذا؟

يحكي أن طريدا تاه في عتمة المدينة، وكـان شـعره الجعدي يلتصق بجلد جبينه الذي يرشح عرقًا. فوقه سماء تنز نجوما، وفي عظام ساقيه ينسكب التعب. كان يسـرع حـين يصادف خلاء، ويتمهل خائفًا حذرا عندما يعبر الشوارع. لم يكن يسائل نفسه إن كان خائفًا أم حذرا؛ فالمسـافة الأطـول المتوجب قطعها كانت الأهم. لكنه موقن أنه مطرود.

مطرود، أم مطارد؟

احتكم إلى هدوئه المشتت – وكان أبعد من أن يستطيع لملمته – وما ظفر بحسم. كل ما كان متأكدا منه أن المدينـة ليست محايدة، وأن السماء غير رحيمة، وأن النبأ نزعه مـن هدنته مع أول الراتب.

إذن، كان هذا في الأخير من شهر (...)، سنة (....) ١٩، وفي الأول من الشهر الذي يلي ما تختارون، السنة التي تصطفون.

أتدعونا لمشاركتك الحكاية؟

في الناس المغبة، وعلي الأرض الاستسـلام لهـا، أو مقارعتها باللسان؛ أقل الإيمان. منكم من عاشها. ومنكم مـن هرب منها بحرز حريز. ومنكم من اجتنبها بالسـلام عليهـا والتعويض عما في رأسه بالدخول في دفء امرأته والنـوم على طراوتها. كلكم تعرفونها؛ فامضوا في تعبئـة الحكايـة ليدوم السهر ويروق الليل.

وماذا أيضا؟

يحكي أن صغيرة، جميلة، شقراء كانت تركض فـي طرقات ليل مرصوفة ببلاط حجري. ثوبها أصـفر شـفيف كالحلم. وجهها متورد كتفاحة منداة. جسمها رقيق لين كعجين مختمر. وفي السماء كان القمر بدرا مستديرا بعينـين وفـم يضحك. وفي رواية أخرى: هلال معقوف تضـطجع عليـه ساحرة. كان اسم الصغيرة، الجميلة، الشقراء: ساندريلا.

قالت لها الساحرة:

- أسرعي إلى البيت، يا ساندريللا. بعد قليل ستعودين خادمة متسخة بالسخام في المطبخ!

أسرعت ساندريللا كي تصل إلى البيـت قبـل زوال سحر الساحرة. لكنها لم تلحظ، في غمرة خوفها، انفلات فردة حذائها على درج القصر...

أهي حكاية أخرى؟

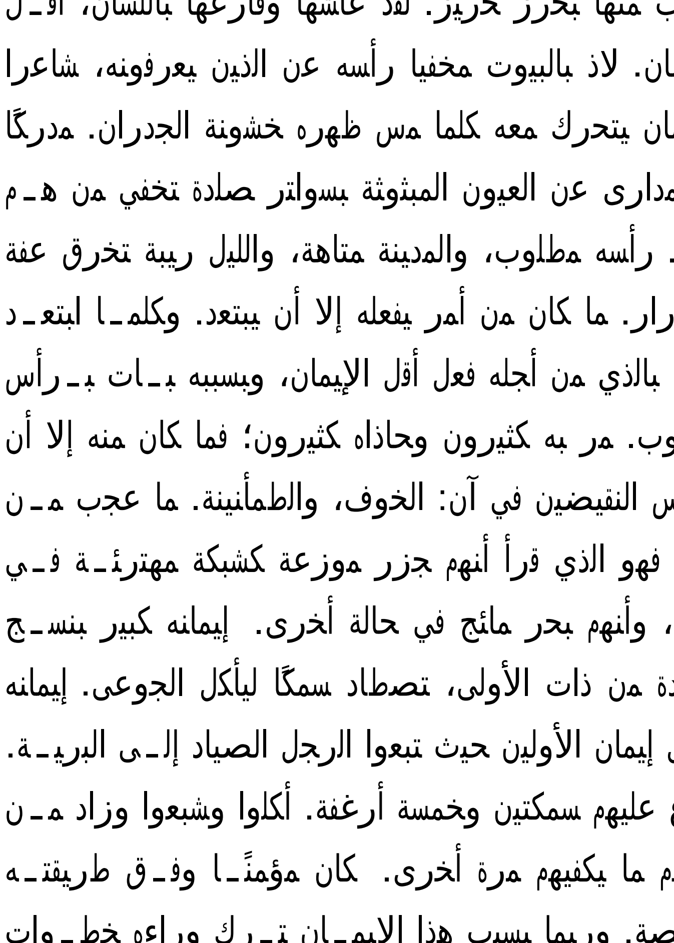
هي جزء من حكاية سمعها المطرود/ المطارد عنـدما اختبأ في بيت العجوز.

ولماذا لا تحكي البداية؟

في البدء كان الرجل الخائف. كان يسرع حين يصادف خلاء، ويتمهل خائفًا حذرا عندما يعبر الشوارع.

حكيت لنا ذلك. ما اسمه؟

الشاطر حسن، أو أبو زيد الهلالي، أو من تشاؤون من صناديد العرب الأقدمين. فر هاربا لما تناهى إليه أن رأسـه مطلوب، وكان ذلك في نهاية الشهر، أو بداية الـذي يليـه. راتبه كامل في جيبه، ووجبة العشاء البسيطة لما تزل ساخنة في صحن مشروخ، فوق جريدة محلية تنعي الأموات، علـى خشبة هي للأكل وللكتب، والكتابة أيضا.



ولماذا رأسه مطلوب؟

هي المغبة في الناس، وهو من الذين لم يجتنبوها، أو يهرب منها بحرز حريز. لقد عاشها وقارعها باللسان، أقل الإيمان. لاذ بالبيوت مخفيا رأسه عن الذين يعرفونه، شاعرا بالأمان يتحرك معه كلما مس ظهره خشونة الجدران. مدركًا أنه مدارى عن العيون المبثوثة بسواتر صلدة تخفي من هم مثله. رأسه مطلوب، والمدينة متاهة، والليل ريبة تخرق عفة الأسرار. ما كان من أمر يفعله إلا أن يبتعد. وكلما ابتعد ضج بالذي من أجله فعل أقل الإيمان، وبسببه بات برأس مطلوب. مر به كثيرون وحاذاه كثيرون؛ فما كان منه إلا أن مارس النقيضين في آن: الخوف، والطمأنينة. ما عجب من هذا؛ فهو الذي قرأ أنهم جزر موزعة كشبكة مهترئة في حالة، وأنهم بحر مائج في حالة أخرى. إيمانه كبير بنسج واحدة من ذات الأولى، تصطاد سمكًا ليأكل الجوعى. إيمانه كمثل إيمان الأولين حيث تبعوا الرجل الصياد إلى البرية. وزع عليهم سمكتين وخمسة أرغفة. أكلوا وشبعوا وزاد من فتاتهم ما يكفيهم مرة أخرى. كان مؤمنًا وفق طريقته الخاصة. وربما بسبب هذا الإيمان ترك وراءه خطوات

تهرب من المسافة التي قطع، قاصدا مساحة أخـف وطـأة. مساحة فيها من الأشجار ما يقطف منها سمكًا، ومن الأرض ما يفلحها أرغفة.

ماذا تقصد أيها الراوي؟

القصد في قلوب الناس. الناس في بطن الحوت. فـي الناس المغبة، وعليكم فهم المستور لينكشط الظاهر ويسـيل الدم فيبرأ الجرح.

ولكنك تقول عن معجزة؟

معجزة كان حظ ساندريللا السعيد.

هكذا حكت العجوز لأطفال البيت قبل أن يناموا؛ فلقـد اعتاد الأطفال التزود بحكاية يحلمون بها ليسـتعدوا للنهـار الجديد. وهذا ما سمعه صاحبنا المطرود/ المطارد، وحـاول أن يعترض. عبست العجوز في وجهـه للمـرة العاشـرة. وقاطعها مصححا للمرة العاشرة. قال أن لا وجـود لشـيء اسمه الحظ. وإن تصادم أحداث منطقية في نقطـة مـا هـو الصحيح. لكنه لم يذكر لها أيا من فلاسفة الإغريق توصـل إلى هذا. اعتقدت العجوز أن المطرود/ المطـارد يماحكهـا، فانساب داخلها غضب مثلما الطفل النزق تسهل مراضـاته.

شعر برغبة غير مفسرة بالعبث. حار فيهـا، لكنـه واصـل محولاً رغبته إلى جدية حادة.

وكيف له أن يفسر؟

مطارد، ورأسه مباح لموظف جائزته راتب يقسط على مدار السنة، ومختبئ لدى عجوز لم تسأله عن سبب هربـه. اكتفت بأنه يشبه ولدها الذي لم يعد من حرب خاسرة، مخلفًا امرأته لغرف غريبة ورجال كثر. وها هو الحاصل: عيـون تمضغ فمها المثني كالأرض يحكي الحكايـا. وآذان تسـرق الأيام الجميلة القديمة لتغمسها ملحا بالخبز العاري.

ويعبث؟!

في البدء كان الرجل الخائف. والخوف كالفرح يقـرع القلب فيحدث ضـجة. هـي ممارسـة النقيضـين ثانيـة. الخوف..والطمأنينة. الخوف..والعبث. لكنه الخوف أبدا.

ما كان بمقدوره التغلب على عبثه وهو يسـتمع إلـى الحكاية. قالت العجوز إن الساحرة الطيبة ألبست سـاندريللا ثوبا شفافًا كالحلم، لكي تحضر حفلـة الأميـر. فـاعترض المطرود/ المطارد، قائلاً:

- يا حاجة. ساحرة، وطيبة؟!

نظرت إليه معاتبة، وأكملت:

- صوبت عصاها نحو قطتي المطبخ، فتحولتـا إلـى حصانين مشدودين إلى عربة ملكية. استدارت بها إلى قدمي ساندريللا الحافيتين، فاكتستا حذاء مذهبا. لمست بهـا عنـق ساندريللا، فالتف حوله عقد عقيق يخطف الأبصار. نظـرت إليها وقالت:

- اذهبي الآن إلى حفلة الأميـر. ولكـن عليـك أن تغادري القصر قبل منتصف الليل.

فسأل الأطفال جدتهم:

- لماذا قبل منتصف الليل؟

فهزت رأسها الأشيب، راسمة على وجههـا خطـوط الحيطة والحذر، وأفصحت:

- لأن سحر الساحرة يبطل بعد منتصف الليل..

وأكمل الأطفال، وقد اعتادوا الاستنتاج السريع:

- وترجع ساندريللا كما كانت. خادمة، متسخة، ثوبها ممزق، وتضربها زوجة أبيها البشعة.

- صحيح يا أطفال. هذا صحيح.

ثم أكملت:

-..وذهبت ساندريللا إلى القصر.

وماذا كان من أمر المطرود/ المطارد؟

طاردته خيول المدينة السود. طاردته حتى عند العجوز التي تحكي للأطفال قصص ساندريللا، وعنترة العبسي، والشاطر حسن، وأبي زيد الهلالي، و...

ولكنك خيرتنا أحدهم ليكون هو.

كان واحدا منهم، وستقوم العجوز بإضافة ما وقع له إلى حكاية اسم منهم..أو كلهم.

كيف؟

الدنيا حكايات، وبقدر ما يسير الزمن تكثر حكاياته.

حكت العجوز بقية حكايتها عن ساندريللا. واستمع إليها المطرود/ المطارد ما بين عبثه وجديته. تأففت العجوز لتعليقاته. وما كف. كيف له أن يكف؟ من ركنه، قريبا من حلقة الأطفال، كان يرى الخيول السود تخب عند المنعطفات. تدق سنابكها صخر الوعد فتولد نجوم وتنخطف من أسنة فرسانها شهب. هل كان يقترب من الرؤى؟ أعجب الأمير بجمال ساندريللا فرغب بها. رقصت ساندريللا ففاقت في ذلك النساء وبزتهن. حطمت غربتها بغرابة رقصها الأخاذ

وحضوره. استسلم الرجال لها فأخلوا الباحة للثوب الأصـفر الشفيف. وللحذاء المذهب يطير علـى أرضـهم. أعجبـتهم وشغف الأمير حبا بها. قالـت العجـوز هـذا، واعتـرض المطرود/ المطارد، فقال: أعجبتهم، لكنهم كرهوها. حسـدتها نساء القصر، واستغربن وجودها فهي ليست مـنهن. ومـن فرط إعجاب السلطان بجمالها خافها على نفسـه فتنـة فـي سلطنته، فدب الحد بينهما ونبت. لم يكن أميرا، كان سلطانًا.

إن مطرودك/ المطارد يقلب الحكاية.

هو يفعل النقيض. يرى فرسان الخيول السود وهم عنه بعيدون. يسمع السنابك وفي المكان صوت العجوز يطغـى. يرقب ساندريللا ويشهد أنها أمه، لكنها في الفـم المتغضـن حكاية. يقسم أن الأمير كان سلطانًا، وأن السلطان ليس شـابا حلوا، بل شيخًا مبتذلاً متهتكًا. هي الخيـول تقتـرب. وهـو المطرود/ المطارد يقسو على العجوز فيبعثر حكايتها. تضيع العجوز بينه وبينها. تتصلب كهولتها مدافعـة عـن سـنيها الكثيرة؛ فتصرخ:

- أنت أخرق تفسد حكاياتنا.

ينتفض المطرود/ المطارد، ويجفل الأطفـال. يقـول بغير إشفاق:

- وأنت تذبحين ساندريللا في القصر. تذبحين أمي!

- يا مجنون. أنا لم أذبحها. لقد زوجتها للأمير.

- الأمير سلطان! والسلطان خصي!

إن مطرودك/ المطارد لا يرحم العجوز.

هو يحبها. لقد خبأته عندها وحمتـه مـن مطارديـه الفرسان بين الأطفال. وربما لهذا لم يـرحم حكايتهـا، ولـم يتوقف عند بكاء الأطفال؛ فهو يحبهم، ويحب العجوز، ولكنه يكره السلطان. إنه يسمع قدوم خيله في الليـل بلـون الليـل برهبة الليل. تهزه العجوز من كتفه وتقول: حصان الأميـر أبيض! فيرد عليها: قلبك أبيض. تتلاشى الحكاية في رؤوس الأطفال بين كلمات جدتهم، وتصحيحات المطرود/ المطارد. تتهاوى العجوز أمام صلابة الوجه الذي يشبه وجـه ابنهـا. تقول بتعب الدهر: اهتدى إلى ساندريللا من فـردة حـذائها المذهب، فتزوجها. احتضن المطرود/ المطارد العجوز، وقد شعر بضعفها يتكوم أمامه، وقال للأطفال: سعي للقبض على ساندريللا مهتديا بفردة الحذاء المذهب؛ فسألوه:

- أليس ليتزوجها أميرة للقصر؟

فقال وقد امتلأت أذناه بسنابك الخيل السود:

- هل رأيتم ملائكة تخرج من القصر فتطعمكم؟!

هذا المطرود/ المطارد يقسو على الأطفال. يعـذبهم. إنهم لا يفهمون.

هو يعرف أنهم مازالوا صغارا. ويعرف أن ما قاله لم تفهمه سوى العجوز. لكنه يعرف، أيضا، أن الصغير يكبـر. وأن الكبير يذكر. انحنى عليها فسقطت قطرتان من عينيهـا واستقرتا في تجاعيد الفم. التصـق الأطفـال بهمـا. فـرد المطرود/ المطارد ذراعيه وأخذهم إليه. اشتد وقع السـنابك في أذنيه وكأنها بينهم. ومضت في رأسه شهب أسنة الفرسان السود، فعاد يعيش النقيضين: الخوف..والطمأنينة. الجلبة في الخارج تقرع القلب بضجتها. أنفاس أهل البيت تدفئ نفسـه فيستريح. هدهد العجوز حين انتفض هيكلها بنشـيج بكـاء. تذكرت ابنها. أخذوه في الليل إلى درب تقود ولا تعيد. قدموه إلى حرب دورية اشتعل فيها وخسرها. صار الرغيف يخرج من كد الرذيلة وعرقها الحرام، لكنـه لا يشـبع. والأطفـال يسافرون في الحكاية ويتمنون ألا يرجعوا. رجعت السـنابك

تقرع الباب فتخلعه عليهم ليتقدم الفرسان. ما تحركت العجوز في تكومها، وما ارتعش المطلوب رأسه، المطرود/ المطارد؛ لكن الأطفال زعقوا عند الأحذية الطويلة.

والحكاية؟

في البدء كان الرجل الخائف. كان يسرع حين يصادف خلاء، ويتمهل خائفًا...

ذكرت ذلك. والنهاية؟

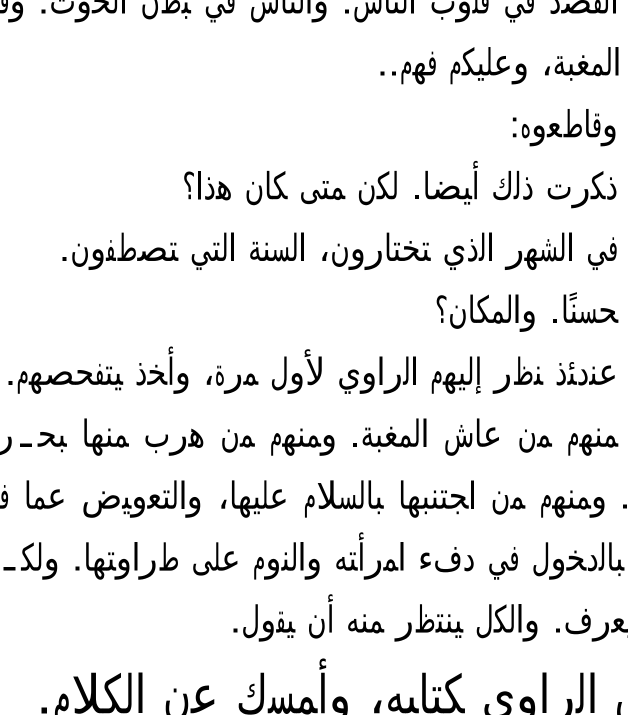
قبل أن يخرج المطرود/ المطارد مع الفرسان، وعلى عتبة الباب المتخلع، التفت إلى العجوز والأطفـال، وقـال: الحق الحق أقول لكم. إن ساندريللا أمي. وإن أمـي ليسـت أميرة. وإن السلطان ما يزال يطاردها حتى اليوم. فمن كـان منكم في مغبة فليلتحق بها.

وأخذوه.

هل وصل إلى الشجر ليقطف السمك، وإلـى الأرض ليفلح الأرغفة؟

لا؟

والقصد أيها الراوي؟



القصد في قلوب الناس. والناس في بطن الحوت. وفي الناس المغبة، وعليكم فهم..

وقاطعوه:

ذكرت ذلك أيضا. لكن متى كان هذا؟

في الشهر الذي تختارون، السنة التي تصطفون.

حسنًا. والمكان؟

عندئذ نظر إليهم الراوي لأول مرة، وأخذ يتفحصهم.

منهم من عاش المغبة. ومنهم من هرب منها بحرز حريز. ومنهم من اجتنبها بالسلام عليها، والتعويض عما في رأسه بالدخول في دفء امرأته والنوم على طراوتها. ولكن الكل يعرف. والكل ينتظر منه أن يقول.

أغلق الراوي كتابه، وأمسك عن الكلام.

عن: أسرار ساعة الرمل

ثمة أسباب ومواضعات تضع "أسرار سـاعة الرمـل" لإلياس فركوح ما بين النصوص المشاكسة بامتياز. فهي ذات وعي "ما بعد حداثي" أولاً، يرفض المحاكاة (...). وهي تعد ضمن السرد الواعي بذاته، فالكاتب حاضر منـذ الابتـداء، يتعامل مع الكتابة بوجدانية ونسك يغيظهما وينتهكهما واقـع متلصص يأخذ شكل مفارز القمع والمصادرة. كما أنها كذلك لارتمائها في استراتيجيات الكتابة التي تقترن بالتفكيك، ومـا بعد البنائية بخاصة.

د. محسن جاسم الموسوي/ م. أفكار. ع١٣٣، آب ١٩٩٨.

كيف تتوالد الحكايات وتظهر الوجوه؟ ومتى تتوالـد؟ هل تتوالد قبل أن تنكتب؟ أم أنها تنكتب انطلاقًا ممـا كـان فيأتي الحدث إلى الكتابة مما سبق أن حدث؟ أم أن الحكايات/

القصص تنكتب في أفق ما يمكن وما ينبغي أن يحدث، فتأتي الوجوه إلى الكتابة من المستقبل؟

أم إن الحكايات إذ تنكتب تتوالد؟

والوجوه إذ تترسم تظهر وتتوجد وتسعي؟

هذه التساؤلات والمعضلات "التقنية" لم تعد تكتفي بأن تطرح نفسها على النقد وعلي كتاب القصة والرواية عنـدنا، بل هي اقتحمت النسيج الداخلي للنص القصـص الروائـي لبعض التجارب الروائية العربية الحديثة، وصارت جزءا من "الموضوع" – إذا صح التعبير – وفـي بعـض النصـوص صارت كأنها هي الموضوع، كأنما الرواية صـارت هـي حكاية نفسها. حكاية مجئ الرواية إلـى الكتابـة، وحكايـة حضور الروائي في الـنص لـيس فقـط كشخصـية مـن شخصياتها، بل أيضا كراوٍ يحار هل هو يكتـب الروايـة أم ينكتب فيها وبها؟

ولعل قصة إلياس فركوح "أسرار ساعة الرمل" تدخل في هذا النسيج مع التساؤلات والإشكاليات التقنية – الحياتيـة معا، وتطرح علينا وعلي نفسـها تسـاؤلاتها وإشـكالياتها،

وتدخل، بهذا، في مناخ التجريب الفني المشغول بوعي وإتقان، بما يعلنه، وبما يريد أن يخفيه..

محمد دكروب/ القصة القصيرة في الأردن. وزارة الثقافة ودار أزمنة. ١٩٩٤.

..يواصل إلياس فركوح الحفر على المغفل من حياة الناس، على الأحاسيس المكبوتة والغائرة بفعل القانون الاجتماعي أو التحريم السياسي. ويثير هذا الكلام شبهة الالتصاق بعناصر المادة الواقعية لحياة الناس، لكننا في الحقيقة نستطيع تلمس التصدع في جسد الكتابة القصصية الواقعية، وكذلك تلمس الاختيار الفني الجديد باللعب على فعل الكتابة نفسه. إن القاص يصرح إن ما يكتبه ناقص غير مكتمل. الكتابة فعل اصطفاء وليس تدفقًا تلقائيا وانثيالاً رومانسيا للأفكار، وبالتالي فإن المفهوم الرومانسي للكتابة يتبدد وتصح إعادة الصياغة، والحديث عن تغيير استراتيجية الكتابة والإشارة إلى الذات الكاتبة أشياء جوهرية في بعض النصوص القصصية.

فخري صالح/ القدس العربي – ٥ آذار ١٩٩٢

..إن إلياس فركوح يطرق بابا كثير الجـدة بالنسـبة للقص العربي. باب نافر بعض الشيء، لا بالمعني السـلبي، وإنما بمعني عدم التعود، أو عدم الألفة. أي أن القاص يوغل في "جغرافيا" غير مطروقة، وخاصة بالنسبة للقصة العربيـة الجديدة.

إن فركوح في غرابة عمله هذا، لم يستند إلـى تلـك "الغرائبية" التي هاجمت بعض قصتنا العربية دفعة واحدة بعد اكتشاف "ماركيز". أي أنه لا يقدم أجـواء واقعيـة سـحرية حسب المصطلح الذي اتفق عليه؛ بل يقـدم سـحر الواقـع المعهود نفسه. يقدم غرابة المشهد الذي قد نـراه أو نتوقعـه يوميا دون أن ننتبه إلى تلك الغرابة فيه. وها هو القاص في قصته المتقدمة هذه يشير إليه وبثقة، تنقل تجربته إلـى أفـق أكثر رحابة واتساعا بالنسبة للقصة العربية. بل إن "أسـرار ساعة الرمل" لن تكون مؤشرا داخل تجربة فركـوح نفسـه فقط؛ بل داخل القص العربي الجديد أيضا.

جميل حتمل/ القدس العربي ٣٠ تشرين أول ١٩٩١

"أسرار ساعة الرمل" بأقسـامها الأربعـة وقصصـها الثلاث عشرة، تفضح أشواق إلياس فركوح لارتيـاد آفـاق مبهمة، وتبرز انشغاله بامتلاك تعبير خاص، حد ابتزاز اللغة وقصرها على قول ما لم يسبق لها قوله، وإحداث فيوضـات في المعني والدلالة. إنها مجموعة تشتبك مع جهـة خامسـة للإنسان والفن والحياة، دونما تواطؤ مع وعي القارئ علـى إعادة إنتاج المألوف، وتؤسس لإباحة الكلام على غير المباح بصور متعددة تعدد قصصها.

د. غسان إسماعيل عبد الخالق/ الغاية والأسلوب – منشورات أمانة عمان ٢٠٠٠

تمعن في استرسال كابوسي أقرب إلى قصيدة طويلـة (لصالح القصة أم ضدها؟) – فهل يكون خوف على القصـة القصيرة من انفجارها شعرا؟ ومن يقدر على تقنين القصـة القصيرة؟ ومع ذلك قد نفضل، عند إلياس، هذا الجانب علـى الوقوع في تقديم قصة سبق أن كتبهـا محمـود تيمـور أو موباسان.

فلسطين الثورة/ ١٩٨٦/٤/٥

..يستدعي إلياس فركوح شخصيات مهملة، يحفر في وجدانها باحثًا عن رفضها للوتيرة الواحدة والإيقاع العام الواحد الذي يحرك حياتها اليومية ويوجه تصرفاتها ضمن المحيط العام. كما يمتلك إلياس اللغة الشعرية التي ينتقي منها الألفاظ التي توازي الداخل في شخصياته.

قصصه تحمل رؤيا للعالم حادة بعض الشيء، لا تتواصل النماذج القصصية مع العالم الذي يحوطها بأشيائه الرتيبة وسطوة المعاش اليومي فيه.

معن بياري/ صوت الشعب – ١٩٨٦/١١/٧